جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ميسان
كلية التربية الأساسية قسم اللغة العربية

عنوان البحث

الزهد والحكمة في شعر ابن الشبل البغدادي

بحث مقدم من قسم اللغة العربية لعمادة كلية التربية الأساسية
لنيل شهادة البكالوريوس

تقدمت به الطالب
سما محمد عبدالواحد

اشراف

م.م حيدر جواد

١٤٤٧هـ ٢٠٢٦م

(أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۚ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ)

سورة الأنبياء اية (٣٠)

إهداء

الى مولاي امير المؤمنين الامام علي بن ابي طالب (عليه السلام)

منبع الحكمة وسمو الزهد واليقين

والى امي وابي

أصحاب الفضل بعد الله وسندي في كل خطوة الذين كان لدعائهم وصبرهم الأثر الأكبر في بلوغ هذه النجاح

والى نفسي التي خاضت الطريق بثبات وتجاوزت التعب وبصبر وايمان حتى جعلت من الطموح انجازا ومن السعي نجاحا يفتخر به

شكر وعرفان

منا وإقرارا بالجميل، يسرني أن أتقدم بجزيل الشكر وعظيم الامتنان
إلى كل من كان له فضل أو أثر في إنجاز هذا البحث.
وأخص بالشكر أستاذي الفاضل الاستاذ المشرف / (حيدر جواد) على ما قدمه لي من توجيهات قيمة، ودعم متواصل، ونصائح علمية سديدة كان لها الأثر الكبير في إخراج هذا البحث إلى صورته النهائية.
كما أتقدم بالشكر إلى أساتذة الكرام أعضاء لجنة المناقشة على تفضلهم بقبول مناقشة هذا العمل العلمي.
ولا أنسى كل من ساعدني من قريب أو بعيد ولو بكلمة طيبة أو دعوة صادقة كان لها الأثر البالغ في تذليل الصعوبات وتيسير الطريق أمامي. أسأل الله أن يجزيهم جميعا خير الجزاء وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وينفع به الباحث

المحتويات

ت	الفهرست	الصفحة
١	الآية	ب
٢	الاهداء	ت
٣	الشكر والعرفان	د
٤	الفهرست	ج
٥		
٦		
٧		
٨		
٩		
١٠		
١١		
١٢		
١٣		
١٤		
١٥		
١٦		
١٧		
١٨		
١٩		
٢٠		
٢١		
٢٢		
٢٣		
٢٤		

المقدمة

يعد البحث العلمي مساحة واسعة لأكتشاف ما ضمتهُ كتب التراث والادب والرجمات، والتي يسعى من خلالها الباحث الى الوصول الى متن النص وإستجلاء معانيهِ وإضاءة مساراته.

وظل الشعر العربي تاريخاً مجيداً وديواناً للعرب حفظ سحر لغتهم، وأظهر بيان كلامها، وعبر عن أفكارهم وأحاسيسهم عبر العصور، وكان تعبيرا صحياً عن حياتهم ،وتصويراً مبدعاً عن أحداث عصرهم. لذا تنوعت أغراض الشعر العربي بين المديح والهجاء والرثاء والفخر والغزل. ويعتبر الزهد والحكمة من الأغراض الشعرية البارزة التي أستخدمها الشعراء العرب عبر عصور الادب العربي ومراحله الزمنية.

ويعد الزهد تعبيراً إنسانياً يعبر فيه الإنسان ومن خلاله توقه ث الى دار الخلود والبقاء، فضلاً عن الدعوة الى الرضا والقناعة بما قد قسمهُ الله عزَّ وجلَّ للأنسان.

لذا وجدتُ في شعر الزهد موقف الفرد / الشاعر في نظره الى المساؤى الإخلاقية ومحاولة أصلاحها، ومن توجه النقد الى السلطة بالأستنكار تارة والنصح تارات آخر.

اما شعر الحكمة فهو يأتي بأنيق الألفاظ وإتقان المعاني وتأليفه العجيب، كل هذا في جزالة اللفظ وجودة العاني وسبك الموضوع التي تتفوق أحيانا على جودة النثر.

وقد جاء هذا البحثُ في شعر((إبن شبل البغدادي)) متتبعين فيه أسلوبه المتفرد في نظمه للشعرفي الزهد والحكمة، وكيف نظرَّ الى الحياة بعين الشاعر الحكيم المتأمل لأحداث عصرهِ وزمانه. وتم أختيارنا لهذا الموضوع، لفرادة شعر الزهد والحكمة، وندرتهِ في أغراض الشعر العربي مقارنة بالأبواب الأخرى.

وقد تضمن بحثيَّ هذا خطة دراسية تتكون من :

مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

التمهيد تكونَّ من ثلاثة مطالب:

1. الحكمة لغةً وأصطلاحها.
2. الزهد لغةًوأصطلاحها.
3. حياة الشاعروشعرهِ.

ولغرض تسليط الضوء على هذه الموضوعة الهامة، فقد تضمن مبحثيّ الأول على مطلبين هما:

1.الزهد في العصر العباسي الثاني،ممثلاً بكل من الشاعرين وهما :

أبن الرومي وأبوالعتاهية.

2. الحكمة في العصرالعباسي الثاني ممثلاً بكل من الشاعرين وهما:

أبو الطيب المتنبي وأبو العلاء المعري).

المبحث الثاني :

وجاء تحت ((الزهد والحكمة في شعرابن شبل البغدادي)) تناولنا فيه الزهد والحكمة لغةً وإصطلاحاً في شعر الشاعر، وتوقفنا عند عددٍ من أبياتِ قصائدهِ نقداً وتحليلاً،وقد أعتمدنا في بحثنا حول الموضوع على المنهج الوصفي التحليلي.

الصعوبات :

1.شحة المصادر المتوفرة عن هذا الشاعر وحياته والموضوعات التي تحدث فيها.

2. قلة خبرتي في ميدان البحث العلمي.

3. عملت بأجتهاد للتغلب على الصعوبات عن طريق تفاعلي مع موضوعة شعر الزهد والحكمة والتعرف على تجارب متفردة من شعراء العصر العباسي الثاني.

تمهيد

في رحاب الحكمة (لغةً واصطلاحاً)

تعد الحكمةُ مشكاةً يستنير بها الفكر الإنساني، وهي القطب الذي تدور حوله رحى التجارب البشرية؛ ولأهميتها البالغة في ميزان الأدب واللغة، كان لزاماً علينا سبر أغوارها بدءاً من جذرها اللغوي وصولاً إلى آفاقها الاصطلاحية.

فضلاً عن هذا تُعد الحكمة من أشهر الأغراض الشعرية ذيوعاً وانتشاراً في العصر العباسي الثاني في بلاد فارس؛ لكونها اللسان المعبر عما يختلج القلوب وتزيل عن النفوس المتعبة الآلام والأوجاع، وطبيعة تأثيرها في نفس المتلقي؛ إذ تتعدد أبعادها وموضوعاتها بفضل نمو فكر الإنسان واتساع آفاق ملاحظاته لما يجري في الحياة من أمور؛ لذا جاءت التجارب الذاتية في شعر العصر العباسي الثاني في بلاد فارس لتحمل طابعاً جديداً تؤكد نمو التجربة الذاتية للشاعر في المجتمع العباسي آنذاك، ومن الملفت أن الحكمة في الفكر الإنساني قد كثرت في الشعر العباسي وزاد إقبال الشعراء للنظم فيها وضمنوا لشعرهم مواعظ وحِكَم عدّة، فالحكمة في الشعر هي ذات طابع أدبي خاص يميزها من الشعر لكنها تكون أعظم أثراً عندما تصاغ على يدي شاعر مبدع له القدرة على توظيف المعاني والإبداع في الأسلوب، فلكل شاعر فلسفة خاصة في صياغة حكمه في النص الشعري بحسب مستواه وقدرته الفكرية، وله مسار فلسفي خاص في حياته يعالج فيه أموراً فلسفية من خلال حكمهم التي تتجه إلى المجتمع والحياة والكون، لا سيما أنها من الوسائل المهمة في رفع المستوى الاجتماعي كونها تحثُّ على الجانب الأخلاقي والإنساني في الحياة.

أولاً: الحكمة في المبتدأ اللغوي

تضرب الحكمة بجذورها في التربة اللغوية العربية متمثلةً في مادة (ح ك م)، وهي مادةٌ توحي بالمنعة والاستيثاق. ففي معجمات اللغة، نجد أن الحكمة تُشير في أصلها إلى "الإحكام، وهو الإتقان في العلم والعمل، وأصلها في اللغة المنع، يقال: حكمتُ الدابة وأحكمتها: جعلت لها حكمة تمنعها من الجموح"[1].

وقد استفاض أساطين اللغة في بيان هذا المعنى، إذ يذهب ابن فارس إلى أن الحاء والكاف والميم أصلٌ واحد وهو المنع، مبيناً أن "أول ذلك الحكم وهو المنع من الظلم، وسميت حكمة الدابة لأنها تمنعها، يقال حكمت الدابة أحكمها حكماً، وحكمت الرجل عن الأمر إذا منعته منه" [2].

وهذا ما أكده الجوهري حين أضفى عليها صبغة الإتقان والتفويض، بقوله: "الحكمة معروفة، والحكيم العالم وصاحب الحكمة، وقد حكُم الرجل - بالضم - حكماً، أي صار حكيماً، وأحكمه أي أتقنه، وحكّمه في ماله تحكيماً إذا فوض إليه الحكم فيه".

---

[1]. ورود وليد الصراف، أشعار الحكمة في ديوان الحماسة لأبي تمام (دراسة موضوعية فنية)، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، كلية التربية للبنات، 2005، (ص 5)

[2] . المصدر نفسه (ص 6)

ولقد تجلى هذا المعنى "المانع" في عيون الشعر العربي القديم، كما في قول جرير:

أَبَني حَنيفَةَ أَحكِموا سُفَهاءَكُم ... إِنّي أَخافُ عَلَيكُمُ أَن أَغضَبا[1]

فالإحكام هنا هو الكبح والمنع، لضمان استقامة الأمر وعدم انجرافه نحو الجموح.

ثانياً: الحكمة في المفهوم الاصطلاحي

حين ننتقل من ضـــيق اللفظ إلى ســـعة الاصـــطلاح، نجد أن الحكمة تغدو "العلم الذي يرفع صـاحبه ويمنعه مما يشينه، وقيل هي وضـع الشـيء في موضـعه، وقيل هي صـواب القول بفعله". فهي ليست مجرد معرفة ذهنية، بل هي ممارسة عملية تتسم بالرشاد.

وفي المنظور الفلسفي، ترتقي الحكمة لتكون أداة لاستكناه الوجود، فهي عند الجرجاني "علم يبحث فيه عن حقائق الأشياء على ما هي عليه في الوجود بقدر الطاقة البشرية". وهو ما يعززه الفلاسفة بوصفها "استكمال النفس الإنسانية بالتصورات

الكلية والتصـديقات اليقينية بقدر الطاقة البشـرية"[2].أما في المنظور العقدي والمتكلمين، فقد تمايزت الحكمة بين الذات الإلهية والجهد البشـري، فهي "في حق الله تعالى معرفة الأشـياء وإيجادها على غاية الإحكام، وفي حق العبد هي معرفة الموجودات وفعل الخيرات".

وعندما تلبس الحكمة حلة البيان والشـعر، فإنها تنصـهر لتصـبح "القول الصـادق المطابق للواقع، الذي يصـــدر عن تجربة عميقة ونظر ثاقب في شـــؤون الحياة وتقلبات الدهر"[3]. وهي بذلك تمثل خلاصـات التجربة الإنسـانية المقطرة في قوالب لفظية محكمة، تصـدق عليها مقولة النبي ﷺ: "إنّ من البيان لسحراً، وإنّ من الشعر لحكمة"[4].

مفهوم شعر الحكمة :

إن الأشـعار متفاضـلة في الحسـن على تسـاويها في الجنس؛ ومواقعها من اختيار الناس إياها كمواقع الصور الحسنة عندهم، واختيارهم لما يستحسنونه منها. ولكل اختيار يؤثره، وهوى يتبعه، وبغية لا يستبدل بها ولا يؤثر سواها.

فمن الأشـــعار أشـــعار محكمة متقنة أنيقة الألفاظ حكيمة المعاني، عجيبة التأليف إذا نقضـــت وجعلت نثراً لم تبطل جودة معانيها، ولم تفقد جزالة ألفاظها. ومنها أشـعار مموهة، مزخرفة عذبة، تروق الأسماع والأفهام إذا مرت صـفحاً ، ولهذه الأشـعار أغراض مختلفة منها: المدح والوصـف والرثاء والهجاء والحكمة. و هذه الأخيرة أي الحكمة فهي عبارة عن آثار التفكير في الإنســـان والمجتمع والوجود والحقائق والأشـياء وهي ثمرات العقل الإنسـاني والإحسـاس الفكري بالحياة. فشعر الحكمة إذاً هو ذلك الشعر الذي تضمن خلاصـة ما لدى الشعراء من تجارب العقل والحياة.

---

1. ورود وليد الصراف، أشعار الحكمة في ديوان الحماسة لأبي تمام (دراسة موضوعية فنية)، رسالة ماجستير، جامعة الكوفة، كلية التربية للبنات، 2005، (ص 6)
2. المصدر نفسه (ص 7)
3. المصدر نفسه (ص 8)
4. المصدر نفسه (ص 11)

ويعد زهير أشهر شعراء الحكمة في العصر الجاهلي، ومعلقته الشهيرة مزيج من المديح لهرم بن سنان والحارث بن عوف، ووصف أهوال الحروب ومفاسدها، رغبة منه في إقناع المتحاربين بالمصالحة والسلام، في أسلوب من الحكمة التي تمنح معلقته بعداً إنسانياً رفيعاً (2)، وكانت الحكمة في العصر الجاهلي مستمدة من تجارب الشاعر وآرائه الخاصة في الحياة، وفي العصر الإسلامي كثرت الحكمة وتنوعت بما دخلها فوق ذلك من أثر القرآن والحديث وعلومهما في التفكير والأخلاق والاجتماع.

ويأتي العصر العباسي ونلقى فيه ثلاثة من فحول شعرائه في الحكمة: أبو تمام والمتنبي وأبو العلاء المعري. فأبو تمام هو الذي ترك ميراثه من الحكمة خاصة يفيد منه أبو الطيب المتنبي، ويتمثله بقريحته العبقرية ويمضي بالحكمة أشواطاً بعيدة، وكان المتنبي شديد الشغف بشعر أبي تمام لا يكاد يفارق ديوان شعره في أسفاره، ولا شك أنه أوتي من ثقافات عصره، وهي غزيرة متنوعة، قد أصاب حظاً أوفر من الحكمة في شعره.[1]

[1].سامية مدوري: شعر الحكمة بين الرؤية الفلسفية والملفوظ النفسي عند المتنبي (مقاربة سيكولوجية تأويلية)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي، جامعة الحاج لخضر - باتنة، الجزائر، السنة الجامعية 2010/2009م، ص 56

ثالثا: الزهد لغةً

تعددت دلالات مادة (زهد) في المعاجم اللغوية، وهي في مجملها تدور حول الإعراض والترك؛ فالزهد هو ضد الرغبة، ويُقال: زهد في الشيء وعن الشيء إذا مال عنه وتركه. والزاهد في الدنيا هو الذي ترك متاعها الفاني رغبةً في الباقي. كما يأتي الزهد بمعنى "التقلل"، ففلانٌ زهيد الطّعم أي قليله، والإزهاد في اللغة يُطلق أيضـــاً على الفقر. وبناءً على ذلك، فإن الجوهر اللغوي للزهد يقوم على استصغار قيمة الشيء وعدم الرغبة في اقتنائه.[1]

الزُّهد والزَّهادة في الدنيا، ولا يقال الزُّهد إلا في الدين خاصـة، والزُّهد ضـد الرغبة والحرص على الدنيا، والزهادة في الأشـــياء كلها ضـــد الرغبة: زَهَدَ وزَهَدَ، وهي أعلى، يَزْهَدُ فيهما زُهْداً وزَهَداً بالفتح عن سـيبويه وزهادة، فهو زاهد من قوم زُهَّاد، وما كان زهيداً ولقد زَهَدَ وزَهُدَ وزَهِدَ منهما جميعاً، وزاد ثعلب وزَهُدَ أيضـاً بالضـم، والتزهيد في الشـيء، وعن الشـيء خلاف الترغيب فيه وزَهَّدَه في الأمر رَغَّبَه عنه[2]

رابعاً: الزهد اصطلاحاً

أما في الاصـطلاح، فقد تباينت عبارات العلماء في توصـيفه، بيد أنها التقت عند حقيقة واحدة، ومن ذلك ما ورد في "نهج البلاغة" بأن الزهادة هي: «قصـر الأمل، والشـكر عند النعم، والورع عند المحارم». وعُرّف أيضـــاً بأنه: «بغض الدنيا والإعراض عنها، وترك راحتها طلباً لراحة الآخرة»، وبأنه: «خلو القلب مما خلت منه اليد». والمعنى الجامع للزهد اصـطلاحاً هو انصـراف الرغبة عن المتاع الدنيوي إلى ما هو خيرٌ منه وأبقى، فهو ليس مجرد تركٍ للشيء، بل هو استبدال الأدنى بالأعلى، بحيث لا يسـكن قلب العبد إلى موجود، ولا يأسـى على مفقود، طمعاً في مرضـاة الله عز وجل.[3]

اي هي طريق يعبر الإنسـان من خلاله إلى دار الخلود والبقاء، فضـلاً عن الدعوة إلى الرضـا والقناعة بما قد قسمه الله عز وجل للإنسان.

ويمكن القول إن شـعر الزهد "وقف من الفرد والمجتمع وقفة الناقد الاجتماعي المصـلح فأشـار إلى المسـاوئ الأخلاقية محاولاً إصـلاحها، وتوجه إلى السلطة بالنقد فاستنكر مرة ونصـح أخرى، مثلما وجه نقده إلى الطمع وحب المال والتملك، التي تدفع الإنســـان إلى ارتكاب كثير من الآثام ويبدأ الزهاد بأنفسـهم في الإصـلاح، قبل أن يدعو غيرهم ولا يكتفي الزاهد بنقده الفرد وتهذيبه، بل إنه يتجه إلى المجتمع الذي يعيش فيه أيضاً"، فضلاً عن أن أبرز ما يمكن أن يميز شعر الزهد هو

---

[1]. يُنظر: شهاب أحمد محمد وعباس فاضل عبيد، "مفهوم الزهد وفضله وفرقه عن التصوف"، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، المجلد (26)، العدد (107)، السنة (2020م)، ص 496-497.

[2]. سهى يونس سلمان الجبوري، ابن الشبل البغدادي: حياته وشعره، ط1، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2010م، ص 76

[3]. يُنظر: شهاب أحمد محمد وعباس فاضل عبيد، "مفهوم الزهد وفضله وفرقه عن التصوف"، مجلة كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، المجلد (26)، العدد (107)، السنة (2020م)، ص 496-497.

الوضوح والبساطة التي تعتري المعاني والألفاظ فلا يستخدم الشاعر أساليب وطرائق ملتوية في التعبير عن فكرته وإنما يلجأ إلى الأساليب والطرائق القريبة من النفس البشرية. وليس ذلك صدفة

لأن أفكار الزهد في الغالب إنما تعبر عن أفكار العامة فيحاول الشاعر ترجمتها في شعره والثاني هو طبيعة الموضوع نفسه؛ فالشاعر غالباً ما يتحدث عن الموت الذي ينتظر الأحياء جميعاً وضرورة التوبة والإنابة إلى الباري عز وجل وكذلك الحديث عن فساد الدنيا وما إلى ذلك.[1]

وحسبما تقدم كان لغرض الزهد حضور في شعر البغدادي وقد ورد في مجموعة من المحاور نذكر منها الآتي؛

لَـيْلٌ وَصُـبْحٌ إِذَا مَا أَعْـطَيَا سَـلَبَـا ... كِـلاهُـمَا فِي قُـوَى أَعْـمَارِنَـا حَـكَـمُ

بِـالـخَيْرِ وَالـشَّرِّ نَرْضَى مِـنْ عِـثَارِهِمَا ... رِضَـى الـفُـيُوضِ بِمَا تَـقْضِي بِـهِ الـزَّلَمُ

طَـرْفَانِ مَا اسْـتَبَقَا إِلَّا لِـكَـبْـوَتِنَـا ... وَخَـاطِفَانِ بِـنَا الـمَوْجَ الَّذِي يَـلْـتَـطِمُ

وَنَـحْنُ أَسْرَى يَـلْوِينَا اخْـتِـلافُـهُـمَا ... لِي الأَعِـنَّةَ أَبْـلَى خَـرْزَهَا الـلُّـجُـمُ

تَـهْـفُو شَـانَا عَلَى الأَنْـفَاسِ أَنْـفُـسُنَا ... كَمَا تَـشَظَّى بِـحَدِّ الـمُـدْيَـةِ الـقَـلَـمُ

مِـمَّا يَـزْهَدُ فِي الـدُّنْيَا الـخَبِيرُ بِـهَا ... أَنَّ الـلَّـذَاذَةَ عَـنْهَا يَـحْدُثُ الأَلَـمُ

فَـكَـيْفَ يُمْسِكُ بِالأَرْمَاقِ مِـنْ أَجَـلٍ ... وَالأَكْـلانِ لَـهُ الأَنْـوَارُ وَالـظُّـلَـمُ

لا بِـالـشَّـبَابِ وَلا بِـالـشَّيْـبِ لِي فَـرَحٌ ... هَـذَا غُـرَابٌ حَـوَى شَـطْرِي وَذَا رَخَمُ

بدأ الشاعر حديثه الزهدي في هذه القصيدة بالكلام على الدورة اليومية المتمثلة بالابتداء بالصبح والانتهاء بالليل، وقد أكد أن هذا التعاقب إنما يأكل من أعمارنا وعلينا الرضـــوخ والقبول بما يفرضـه علينا سواء أكان خيراً أم شراً، فهو يشبه حال الناس في الدنيا بالأسرى الذين لا يقدرون على فعل شيء، لأنهم مجبرون على سماع الأوامر وقبول الواقع، وكرر الشاعر أسلوب التشبيه مرة أخرى (كما تشـظى) فشـبه أنفاس الأنفس بحال السـكين الذي يحد القلم فيتشـظى منه الخشـب كذلك هي حال الأنفس تتشـظى وتتلاشـى بحضـور الأجل ولكن الذي يعرف الدنيا جيداً هو الذي يعمد إلى التزهد فيها فلا تجره مغرياتها نحو ارتكاب المعاصي والآثام ولاسيما أنها زائلة وفانية لا محالة، والموت سيدركه ولو بعد حين.[2]

حياة الشاعر وشعره

«ابن الشِّبل البغدادي» قامة شعريّة سامقة من قامات الفكر والإبداع في القَرنِ الخامِسِ الهجريّ، نظم الشِّعر فأبدع وأجادَ، وتعمَّق في الفكر الفلسفي فضَمَّنَ شِعرَه بعض المعاني الفلسفيّة التي تُمثِّل - بالإضافة إلى الموروث الشعري لأبي العلاء المعري[3].

[1]. سهى يونس سلمان الجبوري، ابن الشبل البغدادي: حياته وشعره، ط1، عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع، 2010م، ص 77
[2]. المصدر نفسه (ص77)
[3]. ابن الشبل البغدادي، الديوان، صنعة وتقديم وشرح: د. عبد الرزاق حويزي،(ص 11)

ابن الشِّبْل البغدادي، أبو علي، محمد بن الحسين شاعرٌ مشهورٌ من شعراء العصر العباسي الثاني، وُلد ببغداد عام (401هـ)، وتُوفي بها عام (473هـ)، تَمَتَّعَ بموهبة شعرية سامية، وطاقة فنية متدفقة، حَدَّثْ بقريحته إلى الإفضاء بكثيرٍ من القصائد الرائعة التي لفتت أنظار النقاد إليه، ومَكَّنَتْ له في شَتَّى الأوساط الأدبية، وسجلت اسمه في سِجِلِّ الشُّعراءِ المُجيدين، وخَلَّدتْ ذكره عَلَى مَدَى عَشْرَةِ قُرونٍ مِنَ الزَّمانِ بدايةً من القَرن الخامس الهجري حتَّى قرننا هذا، وحدت بالأستاذ "أحمد أمين" إلى تفضيل شعره على شعر الشاعر الشهير "أبي العلاء المعري"[1].

فهو بَغداديُّ المولدِ والنَّشأةِ والوَفاةِ كما ذهب كثيرٌ مِمَّن تَرجموا له، ولا يُوجد في أخبارِه ما يَدُلُّ على أَنَّه رَحَلَ عن بغداد، فقد وُلِدَ بها عام (٤٠١ هـ)، وحاول بعضُهم تحديدَ مَحَلِّ ولادتِه ونشأتِه فذهب إلى أَنَّه وُلد في شارع دارِ الرَّقيق ببغداد، وقد التقاه «الباخَرْزِيُّ ت ٤٦٧ هـ» صاحب كتاب «دُميةِ القصرِ وعُصْرةِ أهلِ العصرِ» ببغداد عام (٤٥٥ هـ)، وتسلَّم منه كثيرًا من شِعرِه، إلَّا أَنَّه فُقِدَ منه!. نشأ «ابنُ الشِّبل» ببغداد، وفيها تَلَقَّى العِلمَ عن كِبارِ شيوخِ عَصرِه في تخصصاتٍ شَتَّى، حتَّى صارَ عَلَمًا يشارُ إليه بالبنانِ في صُنُوفِ العِلم والمعرفةِ والثَّقافةِ الإنسانيَّة، ومَقْصدًا لطلابِ العلمِ، فكان كما قالَ «ابن الدِّمياطي ت ٧٤٩ هـ»: «إمامًا في النحو واللُّغة والأدب»، وكما قال «الشَّهْرَزُوْرِيُّ ت ٦٨٧ هـ»: «حكيمًا فيلسوفًا متكلمًا شاعرًا»، وجمعَ إلى ذلكَ الظَّرفَ وصِفَاتِ النَّديم كَمَا قَالَ «ابنُ شاكر الكُتُبي ت ٧٦٤ هـ»[2].

وكتب عنه الحافظُ البغداديُّ، صاحبُ كتاب تاريخ بغداد بعضَ رسائله. ويدلُّ شعرُ «ابن الشِّبل» على بعض العلاقاتِ الاجتماعيةِ له مع بعض وجهاءِ عصره، إمَّا مادحًا لهم، وإما رائيًا، وإما هاجيًا، وإما مُتعلمًا، وإمَّا مُعلمًا، وقد سبق ذكرُ بعض شيوخه وتلاميذه، ورُواة شعره، وممن اتصلَ بهم غير هؤلاء: «أبو المنيع قِرواش ت ٤٤١ هـ»، صاحب المَوْصِل، والقاضي «أبو يَعْلَى بن الفَرَّاء الحَنْبلي ت ٤٥٨ هـ»، وقد مَسَّ لهيبُ المعاصرةِ بعضَ علاقاته الاجتماعيةِ، على ما ذهب «الصَّفَدِيُّ ت ٧٦٤ هـ»، في كشفه عن الهِجاء الذي دَبَّ عقاربه بين «ابن الشِّبل»، و«ابن ناقيا البغدادي ت ٤٨٥ هـ»، وأكَّدَ شعرُ «ابن الشِّبل» اضطرابَ العلاقة بينهما.

تُوفي «ابن الشبل البغدادي» - رحمه الله - في الحادي والعشرين من شهر المحرَّم عام (٤٧٣ هـ) عن عمر يناهز (٧٢) عامًا، كما قالَ الذَّهبيُّ ت ٧٤٨ هـ، وهناك من العلماء مَن ذهب إلى أَنَّه تُوفِّيَ عام (٤٧٤ هـ)، وهناك مَن ذهب إلى أَنَّه تُوفِّيَ عام (٤٧٥ هـ) وأرى أنَّ الرَّأيين الأخيرين بعيدان عن الدِّقَّةِ، لأنَّهما صادران[3].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل لقد دفع إبداعه الشعري بعضهم إلى جمع أشعاره في ديوان، شاع وذاع في عصره، وبعد عصره إلا أَنَّه ضاع ضمن ما ضاع من تُراث أمتنا النفيس، ولم يبق أمام الباحثين في العصر الحديث إلا جمع ما تبقى من شعره مبثوثاً في مصادر التُّراث العربي، فأثرت في العصر الحديث محاولة، نَهَضَ بها عام 1998م الدكتور الفاضل "حلمي عبد الفتاح الكيلاني" - سلمه الله - فنشر لـ "ابن الشبل" شوعاً شعرياً على صفحات العدد (54) من مجلة مجمع اللغة الأردني، ضمَّ (116) ما بين قصيده ومقطوعة ونتفة شعرية، حصيلتها (451) بيتاً،

---

[1]. المصدر نفسه (ص 7)
[2]. المصدر نفسه (ص 16)
[3]. المصدر نفسه (ص 20)

ثم نهض كاتب هذه السطور بنشر بحث عام 2006م، في مجلة تراثيات الصادرة عن مركز تحقيق التُّراث بالقاهرة[1].

رزق «ابن الشبل» رِقَّةً ساميةً في الإحساس، وشَفافية لا حدود لها من الوجداناتِ الصَّادقة، والمشاعرِ الفَيَّاضة، وخيرُ دليلٍ على هذا شعرُه في الرِّثاء الذي وافقَ رُوحَه الَّتي لم تُغادِر الحُزنَ طيلةَ حَياتِهِ، ونفسه الحائرةَ التي لم تَفرَحْ قَطُّ في دنياه، ولم تفارقِ الدُّموعَ والبكاءَ، فقد رثى أخاه رثاءً حارًّا بقصيدةٍ رائعةٍ سائرةٍ، قال فيها:

غايةُ الحُزْنِ والسُّرورِ انقِضاءُ ... ما لِحَيٍّ مِن بَعْدِ مَيْتٍ بَقاءُ

لا لَبيدٌ بأَرْبَدٍ ماتَ حُزْنًا ... وَسَلَتْ صَخْرًا الفَتَى الخَنْساءُ

مثلَ ما في التُّرابِ يَبْلَى الفَتَى فالـ ... ـحُزْنُ يُبْلِي مَن بَعْدَه والبُكاءُ

غَيْرَ أنَّ الأمواتَ زَالُوا وأَبْقَوا ... غُصَصًا لا يُسيغُها الأحْياءُ

إنَّما نَحْنُ بَيْنَ ظُفْرٍ وَنابٍ ... من خُطُوبٍ أُسُودُهُنَّ ضِراءُ[2]

وقالَ ايضا:

[من الوافر]

بِحِفْظِ الجِسْمِ تَبْقَى النَّفْسُ فِيهِ ... بَقَاءَ النَّارِ تُحْفَظُ بِالوِعَاءِ

فَبِاليَأْسِ المُمِضِّ فَلا تُمِتْهَا ... ولا تَمْدُدْ لَهَا طُولَ الرَّجَاءِ[3]

[1]. ابن الشبل البغدادي، الديوان، صنعة وتقديم وشرح: د. عبد الرزاق حويزي، (ص7)
[2]. المصدر نفسه (ص22)
[3]. المصدر نفسه (ص38)

المبحث الاول

مقدمة في الزهد

شـهد الأدب العربي تطوراً ملحوظاً في مضـامينه تزامناً مع تطور الحياة الروحية في الإسـلام. ومن أبرز تجليات هذا التحول هو تطور "شـــعر التدين" الذي لم تلبث معالم الزهد أن بدأت تظهر في ثناياه، مستجيباً للأفكار الروحية الجديدة ومعبراً عنها تعبيراً صادقاً. ومع تبدل العصور، انتقل هذا اللون الشـعري من مجرد طابع عام إلى طور جديد ومسـتقل أُطلق عليه اسـم "شـعر الزهد". وتميز هذا الطور الجديد بشدة توغله في الروحية واحتوائه على مقومات مبتكرة ميزته عن القرون السابقة، لاسيما في القرن الثاني الهجري وما بعده، حيث تحول الزهد إلى مذهب شعري قائم بذاته له شـــعراؤه المتخصـــصـــون الذين انقطعوا له ودعوا من خلاله إلى ترك الدنيا والاقبال على الله تبارك وتعالى[1].

تأسيساً على ما تقدم، لم يكن الزهد في مسيرته التاريخية والشعرية صادراً عن دافع واحد، بل تباينت منطلقات ومآرب الزهاد والنســـاك في المجتمع؛ فبينما اتجه فريق منهم إلى التمســـك بحياة زاهدة حقيقية ترفعاً عن الوقوف بأبواب الخلفاء والوزراء وحرصـــاً على ســـلامة دينهم -كصـــنيع الخليل بن أحمد-، ذهب آخرون مذهب التقشـــف والتخفف من تكاليف الحياة خوفاً من الحســـاب ورغبةً في التبتل الخالص والانقطاع عن لذائذ الدنيا وزخارفها. وفي خضـــم هذا التباين، التقت رسالة الوعاظ والشعراء لتقديم مادة وعظية واسعة تُصاغ في قالب شعري يهدف إلى إيقاظ الناس من غفلتهم القاتلة وتذكيتهم بالعمل الصـــالح. ومن هنا، تداخلت العوامل النفســـية، والســـياســـية، والاجتماعية لتشـكل بمجموعها هذا المناخ الروحي المتميز، وهو ما يدعونا إلى تتبع هذه الأسـباب بشـــيء من التفصـــيل لنتبين عمق تأثيرها في ازدهار هذا الفن الأدبي. ولما كان الأدب بمفهومه الحقيقي ليس إلا التعبير الصـادق عن المشـاعر والإحسـاسـات والمرآة التي تعكس صـور المجتمع وعواطف الناس المختلفة وأفكارهم المتباينة، فقد كان لزاماً عليه أن يؤدي وظيفته في تصـــوير المجتمع الإسـلامي وما طرأ عليه من نزعات وتيارات فكرية أو معتقدات. ومن هنا، تجسـد الزهد في نتـاج الأدبـاء كنزعـة روحيـة طبعت نتـاجهم بطـابع خـاص، وحملت لنـا بطون الأدب تيـارات متنوعة عبروا فيها عن مشـاعرهم وما تمثلوه في وجداناتهم من أحوال نفسـية وخطرات روحية، فأنتجوا لنا فيضاً زاخراً من الشعر والنثر مما تهذبت به النفوس وارتاحت إليه القلوب.[2]

---

[1].عبد الستار السيد متولي: أدب الزهد في العصر العباسي: نشأته وتطوره وأشهر رجاله، (رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب)، إشراف: الأستاذ إبراهيم أبو الخشب، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٩٧٢م، ص 56.

[2] . المصدر نفسه ص (86-87).

1- ابن الرومي حياته و شعره وأسباب حضور الزهد في شعره

أ- حياته:

ولد ابن الرومي، علي بن العباس بن جريج، أبو العباس، في بغداد عام ٢٢١ للهجرة -٨٣٦ للميلاد، وكان مولى لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور وكان والده من الروم، وقد أطلقت هذه الكلمة على عدة معان مختلفة بحيث إنها لا تشير لأية إشارة دقيقة لجنسية الموصوف بها وربما كان معناها هنا الإغريقيين من أهل الإمبراطورية الرومانية السفلى. ويبدو أن أمه (حسنة) كانت من أصل فارسي. ويتبين من اسم جده (جريج) أنه كان مسيحياً، ومن اسم أبيه العباس أنه كان مسلماً. وتقتضي صلة الولاء أنه أسلم على يد مولاه عبيد الله بن عيسى، ولا شك أنه كان رقيقاً فأعتقه عبيد الله في تلك المناسبة، ويبدو أن عبيد الله نفسه لم يكن مشهوراً، وإن انحدر من أسرة لها خطرها[1]، ذات قرابة وثيقة بخلفاء العصر من العباسيين. فقد كان عيسى أبو عبيد الله ابن عم هارون الرشيد ، وأخا زوجته المشهورة زبيدة وادعى ابن الرومي مرة أو اثنتين أنه من أصل شريف أو ملكي، قال:

وبعد فإنني في مشمخر عصائب رأسه قطع ضباب
أحلتنيه آباء كرام بتيجان الملوك ذوو اغتصاب

ولن نحمل هذا الادعاء محمل الجد . إذ يبدو أنه كان من المألوف وصف كل فارسي أو إغريقي على وجه التقريب بأنه من أصل ملكي ، حتى ان ابن الرومي نفسه يدعي أن كسرى من أجداد أجداد أصدقائه ،على حين يعلن أن قيصر من آبائه وقضى ابن الرومي طفولته وشبابه في بغداد ، ويوجد من الأسباب ما يجعلنا نطمئن الى أن أسرته إذ ذاك كانت على شيء من اليسار وبرزت موهبته الشعرية في وقت مبكر ، فقد صاغ قصيدة قصيرة ، يقال إنها أول ما قال ، وهو لا يزال في الكُتّاب ، وأشار ذات مرة إلى الدراسات المتقدمة التي تلقاها في صحبة أحد الأصدقاء وربما كان من أساتذته محمد بن حبيب البغدادي ، الذي اشتهر بمعرفة التاريخ و اللغة ، ولا توجد معلومات أخرى عن ثقافته ، غير ما يمكن استنباطه من آثاره . إذ تدل قصائده على بعض المعرفة بتاريخ العرب و الفرس[2]، ولكنني أشك في تجاوز معارفه التاريخية ما كان شائعاً بين أهل عصره من المثقفين رغم أنه أشار إلى كثير من الشخصيات التاريخية. لم يكن شعر ابن الرومي الا لما

[1] . راجس بن مبارك الدوسري: الزهد في شعر ابن الرومي (دراسة موضوعية فنية)، (رسالة مقدمة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في قسم اللغة العربية)، إشراف: الأستاذ الدكتور عبد الله بن إبراهيم الزهراني، جامعة أم القرى، كلية اللغة العربية، قسم الدراسات العليا العربية، تخصص الأدب العربي، ص 30.

[2] . المصدر نفسه ص 31

يعانيه في مجتمعه، ولما كان يعانيه في نفسه وجسمه، وأهل زمانه، وهو أكثر الشعراء وصفاً لما يعانيه أهل زمانه ومشاعرهم نحوهم وإلى الكشف عما يعانيه من هموم

ومتاعب بسبب ضعف جسمه وبنيته، أوما يحس به من مخاوف وأوهام وظنون والشعراء عموماً لا يتحدثون كثيراً عن أحوالهم وما يمر بهم من دقائق حياتهم اليومية، لأنهم منصرفون إلى الفن، ينظمون الشعر ويجوّدونه ويعتنون به، معتقدين أن همومهم الشخصية مِلْكٌ لهم فحسب، وأنه من غير اللائق إطلاع الآخرين عليها، لذا لا نستطيع الحصول على صور واضحة للشعراء من خلال دواوينهم، لكن الأمر مختلف مع ابن الرومي، لأن شعره انعكاس لكل دقيقة كان يعيشها في مجتمعه، ولكل همّ كان يحسه ويعيشه، إنه باختصار يعرض حياته العامة والخاصة بكل تفاصيلها من خلال الشعر، وهو بذلك يهيئ الشعر ليكون قريباً من روح الحياة والناس، وأكثر تعبيراً عن نفس قائله، كما أنه يهيئه ليكون تعبيراً عن الأحاسيس والمشاعر الخاصة أكثر من كونه وصفاً للممدوح، ومهنة يتكسب الشاعر منها قوت يومه. إنه يحاكي مختلف مظاهر الحياة، ويحاكي مشاعره أكثر من محاكاته للفن الشعري ذي الأصول الراسخة التي تعارف عليها النقاد[1]. وهذه المحاكاة هي جوهر الشعر، لأن الشعر تعبير عن النفس أولاً. وإن فهمه لوظيفة الشعر على هذا النحو تجديد حقيقي في الشعر، لأنه أبعده قليلاً أو كثيراً عن دائرة الرسميات وما تعارف عليه النقاد وأهل البصر بالشعر. ولعل هذا الموقف سبب من أسباب ابتعاد ممدوحيه عنه، لأنه انصرف عنهم إلى نفسه وأحواله، فبدت قصائده مزيجاً من مشاعر متباينة، فيها وقوف طويل عند ذاته المعذبة المقهورة التي أصابها نُوَبُ الزمان، وفيها وقفات قصار متفرقة عند الممدوح، حتى لتصبح أحوال الشاعر الغرض الرئيس من القصيدة، ويصبح المدح تابعاً أو ذيلاً لها. ولم يترك ابن الرومي صغيرة ولا كبيرة تتعلق بحياته إلا أحصاها في شعره، بل إنه أحصاها في الشعر الموجه إلى الآخرين، فلم يكتفِ بعرض همومه ومشكلاته وكل ما يعانيه في قصائد ذاتية مستقلة، بل إنه جعل تلك الهموم موضوعاً أساسياً في قصائد مدحية التي توجه بها إلى الممدوحين. لذا سنبحث عن المؤثرات التي تركت صداها في شعره، سواء أكانت عامة تتعلق ببيئته ومجتمعه ، أم خاصة تتعلق بشخصيته جسماً ونفساً. وسأرى كيف تجلت في شعره. وإنني أعترف أن الفصل بين تلك المؤثرات غير علمي، لأن تلك المؤثرات متداخلة متشابكة فيما بينها، تشابك المشاعر والأحاسيس، لكني سأفصل بينها فصلاً مؤقتاً لأتلمس مظاهر كل أثر على حدة، وأنا أعلم أن استقلالية الأثر أحياناً قد ينتج عنها تشابة في المظاهرات التي تجلت فيها مع مؤثرات أخرى[2]، لكن لا حيلة أمامي إلا أن أفعل ما سأفعل تتبعاً للأثر من مصادره، ورصداً له في مظاهره التي تجلى فيها. استجاب

[1] . المصدر نفسه ص 32

[2] . المصدر نفسه ص 33

ابن الرومي لأحداث عصـره المختلفة وشـارك فيها من خلال رصـده لها وتعبيره عن مشـاعره تجاهها، وهي مشـاعر غير صـادقة أملتها طبيعة مهنته بوصـفه شـاعراً مداحاً يعيش على مهنة الشعر وما فيها من مديح وتهانٍ ورثاء؛ فقد شارك في أحداث عصره مهنئاً بالخلافة

وبالوزارة وبولاية العهد، وبالقدوم من السـفر، والشـفاء من المرض، وبناء الدُّور، وبالأعياد المختلفة، وبالزفاف والولادة والختان، وأشـاد بالأعمال الإيجابية للخلفاء ووزرائهم وقوادهم، كالقضـاء على الخارجين على الخلافة، والانتصـار على الروم واسـتعادة ما اغتصـبوه من بلاد المسلمين، والإصلاحات الإدارية والاقتصادية، أما وفاته فمات مسموما عام ٢٨٣ للهجرة بعد أن سممه الوزير القاسم بن عبيدالله بعد أن خاف من هجائه وقبح لسانه فلذلك كان لسانه وثيق الصلة بموته[1].

ب ـ نفسه:

انعكست نفس ابن الرومي في شعره تمام الانعكاس، وأثرت فيه تأثيراً واضحاً، حتى ليصحُّ أن نقول: إننا لا نستطيع فهم شعره ما لم نفهم نفسه حق الفهم. وانعكاس نفسه في شعره أخذ عدداً من الأشكال أو المظاهر؛ منها ما كان تعبيراً صادقاً عن تلك النفس في مختلف أحوالها، ومنها ما كان تعويضـاً عن هزائم وانتكاسـات نفسـية أخذت شـكل ادعاءات مختلفة، كتلك الادعاءات التي رأينا بعضاً منها عندما تكلمنا عن بيئته وعصره والتبرم بالناس وسرعة الغضب، وكأنه يريد أن يتعالى على ما فيه من عيوب نفسية، أو أن يعوض تلك النقائص والعيوب بفضـائل يمتدحها الناس في كل الأزمنة والأمكنة؛ فقد ادعى أنه ذو حلم وصبر وأناة، إذا كان الشعر تعبيراً صادقاً عن الحياة التي يعيشها الشاعر فالشعر الرومي مادة حياته يترجم به كل ما عمل وما علم وما علم بقالب فني رائع. فلا يتحرك أو يتنفس أو يحس إلا ليتخذ من ذلك كله مادة لشـعره وفنه وابداعه في حين أنه ينكسـر انكساراً لنازلات الزمن ويتمنى الموت ويتضح جلياً في قوله في داليته لرثاء ابنه:

ثكلت سروري كله إذ ثكلته * وأصبحت في لذات عيشي أخا زهد

أود إذا ما الموت أوفد معشرا * إلى عسكر الأموات أني من الوفد [2]

[1] . المصدر نفسه ص 34

[2] . المصدر نفسه ص 45

ج- فلسفته:

في شـعر ابن الرومي التفاتات زهدية ، تمحي عبرها أحداق ثاراته، وأشـلاء الرعب، ووجوه الأماني المنطفئة، فلا يعود يواجه الناس في نفسـه، بل يواجه نفسـه ذاتها، ينازع وجودها وفجيعة المصير والبراح، ولئن تعذب ويئس لأمل يخيب، أو لحاجة تصد، فقد كان طبيعياً أن يتفجع ويعول للشـباب الذي ينقضـي والعمر الذي ينصـرم، ذلك أن فكرة الزوال هي الخيبة الكبرى، لأنها تمثل حقيقة الأشياء وقيمتها، وتعتري المرء بشعور الباطل والإعياء، لقد ألمت الشيخوخة بابن الرومي فتنازع وتشـبث بالحياة، فكأنه غريق ما برحت تضـيء في خاطره، منارات المدينة ومصـابيح البيوت والشـواطئ، ذلك أن أعظم مأسـاة هي مأسـاة الشـباب الذي يصـبح هرماً، القوة التي تصـبح عجزاً، والعافية التي تتحول مرضـاً، ويتولاه فيها شـعور العدم، ولئن كان ذلك واقع الناس جميعاً، فهو دون شـك، واقع ابن الرومي بالذات، لأن شـهوة الحياة، ما برحت تتأكل في أعصـابه، بعد أن اجتاز شـبابه، دون أن يتيسـر بإشـباعه، ولقد تحولت شـهواته إلى رغبات مكمودة، وتتلمظ فيها أحداث الغرائز والميول، وبقيت نفسه تتحرك وتتأكل برغائبها، لذلك فإن حنينه لشبابه، ليس سوى عويل تلك الرغائب التي سـتئدها الشـيخوخة، أي أنها صـيحة الحي الذي يطأ جدار القبر ، فالزهد لديه فلسفة حياة وخلاصة تجربة وعاطفة مؤقتة.[1]

ومن يتأمل زهد أبي العتاهية، وزهد ابن الرومي، يجد أن ذاك عن اقتناع وتقوى وتزهد، وهذا عن هرم واسـتحالة، ذاك زاهد قادر، وهذا لاه عاجز، ولكن ابن الرومي يشـعرنا في بعض نصوصه أن لديه حسا دينيا زاخرا ونفسا وروحا ملتزمة مراقبة الله عزوجل كقوله : وكفى شاهدا بذاك مليك لم تزل عينه علي رقيبا وابن الرومي لما يلتفت إلى الموت، ويتحدق تحديقاً، يوري به الرعب والزهد (٢) لهذا لا نرى في تبتله قلقاً وحذراً، أو تبكيتا كأبي نواس، بل رعونة وقلة اكتراث يقتربان إلى الحمق، وليس حنينه إلى الشباب سوى حنينه للباطل الذي عجز عنه، وهو لا يسلم على المشيب ويرحب به إلا لأنه يأمل أن يؤدي إلى عودة الشباب إليه.

وقُلْـتُ مُسَـلِّماً لِلمَشِـيبِ أهْـلاً * بِهَـادِي المُخْطِئِـينَ إلَـى الصَّوَابِ
أَلَسْـتَ مُبَشِّـرِي فِي كُـلِّ يَـوْمٍ * بِوَشْـكِ تَرَحُّلِـي إثْـرَ الشَّـبَابِ
لَقَـدْ بَشَّـرْتَنِي بِلَحَـاقِ مَـاضٍ * أَحَـبَّ إلَـيَّ مِـنْ بَـرْدِ الشَّـرَابِ[2]

[1] . المصدر نفسه ص 48
[2] . المصدر نفسه ص 49

إن الشـاعر يرحب بالشـيب، هادي المخطئين، وقد دعاه في ذلك دعوة عامة، لا تعبر عن رأيه بل عن رأي الناس فيه، فانتقل بهذه الفلذة من الغنائية الوجدانية، التي تعبر عن واقع الشـــاعر، إلى الكلاسيكية الغيرية التي تعبر عن وجهة النظر العامة، هذه النظرة ليست من حدقته، بل حدقة

المطلق، لهذا فهو ليس بهاديه، بل هادي المخطئين، فقد نسـب الهداية للمخطئين عامة دون أن يهتدي، لأنه لا يقبل الشيب بزهده ورشده، بل لأنه يبشره (بوشك ترحله أثر الشباب). ولعل ذلك يظهر تقمص العواطف التي تتعذر أو تستحيل، فهي لا تموت أو تستسلم، بل تحتال على نفسها وتتجه في نحو جديد، إن حبه للشباب وشوقه إليه، تحولاً به عن شوق الحياة والبقاء، إلى شوق الموت والخلود، حيث يمكنه أن يلتقي بشبابه من جديد، هذا التحول يدل دون شك على شدة تعلقه بالشـباب، وكرهه للهرم والشـيب، لكنه يدلنا في الوقت ذاته على طبيعة الإنسـان التي تتحقق في الوهم، إذ عجزت عن التحقق باليقين. فكأن الخلود ليس في الواقع، سـوى ملحمة الشـوق، وميثولوجيا الأماني المستحيلة، وهكذا فإن شوق ابن الرومي لشبابه، ابتدع أسطورة اللقاء الثاني العتيد فيما وراء الوجود، بعد أن تعذر في الوجود الشعر والمنطق. جميعاً، في حدقة الرؤيا أو في يقين النفس وإيمانها، أو ليست الميثولوجيا في ذلك هي أجمل قصائد الوجود. إلا أن ابن الرومي لم يكن رائداً من رواد الغيب، وإنما هي بعض خواطره تسنح له، أو بعض أوهام، يقتنع بها جنباً، ليخادع نفسه ويخفف من وطأتها وأساها، وهو على الأحوال جميعاً لا يبدو في هذه الأبيات منهمراً انهماراً من غيبه، وإن كانت تشتمل عليه، بعض صور الذهول، فهذا هو يوشك أن يسف، أو يهذر، فبعد أن ارتفعت المغالاة بحبه لشـبابه، إلى ذروة الخلود والأسـطورة، إذا به يقع على الحضيض، حضيض النقل والتقرير، والتقليد إذ يجعل حبه له كحبه للشراب

لَقَدْ بَشَّرَتْنِي بِالْحَاقِ مَاضٍ *** أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَرْدِ الشَّرَابِ [1]:

د- مقام الزهد في شعره:

ابن الرومي ليس زاهداً بفطرته، ولكنه شـاعر الحياة، ولذلك كان شـعر الزهد في ديوانه ليس كثيفاً، فله خمس قصائد زهدية منها ثلاث في وصف الزهاد، وزهديات منثورة في ثنايا أغراضه الأخرى وهو لا يقاس بشـعراء الزهد المكثرين في هذا المضـمار ولم يكن الزهد تقليدياً، إذ جعله وصفاً موضوعياً للزهاد، وأدخل عليه الغزل، ولكن ليس على غرار الصوفيين. ولا ينتظر من ابن الرومي أن يكون واحداً من شـعراء الزهد، إذ لم يُعرف بالزُّهد طوال حياته، فضـلاً عن أنه كان مُقبلاً على الدنيا ولذّاداتها، ونحن نجد في ديوانه بضـع قصـائد ومقطوعات في الزهد تَّتصـف

[1] . المصدر نفسه ص 50-51

بالقصـــر، وتقع بين البيتين والســـتة عشـــر بيتاً، ولعل ذلك يعود إلى أنَّه لم يســـتطع أن يعيش حياة الزُّهاد، وهي حياة تقوم على التقشُّف والصَّبْر ومقاومة الشَّهوات، بل كان ينفق ساعاته في الحانات ومجالس القيان، وقصارى الأمر عنده أنه يصف زهد الآخرين ولا يصف زهد نفسه. ويبدو أنَّه لم

يَقُلْ ما قال من شعر الزُّهد إلا في فترات صحو كانت تنتابه، و شعره يشتمل على عواطف دينية وتأملات في الحياة والموت. ومِـــــن هنا تنوّعت موضـــوعات زهده. تأثّر ابن الرومي في زهده بعناصـــر إســـلامية أبرزها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشـــريف، وبعض شـــعراء الزهد كأبي العتاهية وأبي نواس. ويميل شوقي ضيف إلى تلمُّس مصادر زهد ابن الرومي في الجانب الشَّعبي، وخصـوصـاً وصـف الثياب البالية الذي سلك فيه مسلك الحمدوي فهو الذي جعلـــــه يهتم بالزُّهد والوعّاظ وليس في حياته ما يصـــــله بالوعظ والزهد. غير أن شـــاعرنا يســـتمدُّ زهده من تجاربه وثقافته الواســـعة التي جعلته يدرك حقيقة الدنيا، فضـــلاً عن نظرته المتشـــائمة الســـلبية التي جعلته يزهد في الدنيا، وينأى بنفسه عنها[1].

هـ - ثقافته

التحق ابن الرومي بكتاتيب عصـــره ، وبحلقات التدريس من المســـاجد ، فحفظ ما تيســـر من القرآن الكريم ومن مختارات الشعر والخطب وتعلم أصول الحساب ، كما استفاد ابن الرومي من مناظرات العلماء من النحويين والفقهاء ، كما اطّلع على كتب المنطقيين والفلاســـفة والمنجمين ، وفي شعره إشارات واضحة تثبت اطلاعه على مثل هذه العلوم. [2]

و- شاعريته

تفتحت قريحته الشعرية وهو حدَث، وتُرْوَى له أبيات مبكرة قالها في هجاء غلام يقال له جعفر. وفي شبابه، اتخذ من الشعر سلعةً يبيعها، وحرفة يتكسّب بها، على طريقة شعراء عصره، فعرض شـعره على القُوّاد والوزراء والأمراء، ولم يثبت أنه اتصـل بالخلفاء. وممن اتصـل بهم ومدحهم : محمد بن عبد الله بن طاهر، والي بغداد منذ سنة ٢٣٧، فلم يجز ل له العطاء، بل انتقد شعره، مما أغضـب ابن الرومي وهجاه هجاءً مراً، قال: إذا حسـنَتْ أخلاق قومٍ فبئسـما خلفتم به أسـلافكم آل طاهر جـــــنوا لكم أن تمدَحوا وجنيتم لموتاكم أن يشـتموا في المقابر توجه إلى سـامراء، وكانت

[1] . المصدر نفسه ص 52-53

[2] . ابن الرومي، ديوان ابن الرومي، شرح: أحمد حسن بسج، ج 1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ص 7.

عاصمة الخلافة، ومركز الدولة، ومقر العظماء، قصدها أيام المنتصر سنة ٢٤٨ هـ ومدح الوزير أحمد بن الخصيب، ولكنه لم يلبث حتى يعود من حيث أتى.

وفي بغداد اتصـــل بمحمد بن عبد الله بن طاهر والي بغداد ومدحه ولكنه انقطع عنه فترة، ثم رثاه عندما مات . ويتصـــل بعد ذلك بأخيه عبيد الله الذي تولى حكم بغداد من بعد أخيه، وكان ذا علم وأدب وينظم الشعر ويتذوقه، وقد أكرم ابن الرومي وأجزل له العطاء ودافع عن شعره تجاه

خصــومه من أمثال البحتري وغيره . وممن مدحهم : إســماعيل بن بلبل، أبو الصــقر، رئيس ديوان الضياع، وفي سنة ٢٥٥ هـــ عُزل عبيد الله، وتولى مكانه أخوه سليمان، فيقف ابن الرومي في صـــف عبيد الله، وعندما خُلع المعتز هجا ابن الرومي ســـليمان لنكثه العهد . ولكن مع تغيّر الظروف، يمدح سليمان فيكرمه ويجود عليه بجوائز.

أما في عهد المعتمد وأخيه الموفق، فقد شـهدت البلاد تطورات عظيمة في الاتجاه الصـحيح، إذ حدّ الخليفة من النفوذ العسكري التركي، وقضى على ثورة الزنج كما ثبت الأمن في شتى الأنحاء، واتخذ من صاعد بن مخلد وزيراً سنة ٢٦٥ هـ، وكان قبل كاتباً، وفي هذه الأثناء كان عبيد الله بن أبي طاهر قد عاد إلى ولاية بغداد، وعادت أيام السرور والهناء إلى ابن الرومي، ولم ينسَ صاعداً الوزير، إذ مدحه هو وابنه العلاء، ولكنه انقلب عليهما عندما أهملا مدائحه وبخلا عليه بالعطاء . وكذلك فعل بابن بلبل الذي لم يفهم مراد ابن الرومي من خلال بيت مدحه فيه ظنه هجاءً ولم يثبه على قصيدته، فنال منه ابن الرومي بهجاء مرّ.

وممن مدحهم : بنو الفياض وهي أسرة فارسية من أهل اليسار، وكذلك بنو نوبخت الذين عرفوا بالعلم والترجمة وخصّ منهم بالمدح أبا سـهل إسماعيل بن علي وكان من رؤوس الشـيعة . وكذلك كانت الحال بينه وبين آل وهب مدحهم ثم ســـخط عليهم . وممن ذكروا في الديوان آل الفرات وبعض القضاة والشعراء والمغنين والمغنيات أمثال مظلومة، ووحيد ودُريرة .[1]

2- أبو العتاهية: معالم شخصيته وعقيدته

أ- حياته:

إن الهوية المرجعية لأبي العتاهية ترتبط بلقبه الذي طغى على اسمه؛ فـــ "أبو العتاهية" كنيته، أمّا اسمه الحقيقي فهو إسماعيل بن القاسم. وأمّا التحقيق في نسبه القبلي فيؤكد الرواة والمؤرخون

[1] . المصدر نفسه ص 8-9

أنه ينتهي إلى قبيلة (عنزة) العربية، بيد أن هذا الانتماء لم يكن صـــليبةً بل كان "بالولاء من قبل أبيه"، في حين ينتهي نســـبه من جهة الأخوال إلى (بني زهرة) من قبل أمه التي كانت مولاة لهم أيضـاً. وقد تداخلت كنيته مع صـفاته النفسـية والاجتماعية؛ إذ إن "عتاهية" لقبٌ غلب عليه بعد أن دعاه به الخليفة المهدي العباســـي يوماً، والعتَاهية في لغة العرب يقال للرجل المتعذلق. وفي هذا السـياق ينقل الأصـفهاني عن المهدي قوله له: "أنت إنســان متحذلق، معتّه"، فاسـتوت له من ذلك كنية غلبت عليه دون اسمه وكنيته الأصلية، وسارت له في الناس[1]. ويوضح أهل اللغة أن الرجل

المتحذلق يسمى عتاهية كما يقال للرجل الطويل شناحية، ويجوز إطلاق الكنية بإسقاط الألف واللام (أبو عتاهية). وفي مقابل رواية التحذلق، تذهب آراء أخرى إلى أن تلقيبه بالعتاهية يعود إلى أنه كان يحب الشـهرة والمجون والتعته في مجالس الكوفة وبغداد. وتتلخص أنباء نشـأته التي بين أيدينا في أنه ولد في بلدة تدعى "عين التمر" قرب المدينة في الحجاز. ويقول ابن خلكان: "وقيل إنها من أعمال سقي الفرات". وقال ياقوت الحموي في كتابه "المشترك" إنها قرب الأنبار، والله أعلم. والراجح أن عين التمر في العراق هي مسقط رأسه؛ فإنه نشأ في الكوفة، والكوفة وعين التمر كلتاهما من ســـقي العراق، ويؤيد هذا قول ياقوت عنها في "معجم البلدان" إنها: "قريبة من الأنبار غربي الكوفة، ولا تختلف المصادر في أنه نشأ نشأة فاسدة، وضيعة؛ فقد كانت أمه

مولاة، وأبوه بائع جرار أو كان حجاماً. وهذا اسمه ــ كما روى الأصفهاني ــ شاهد على فساد نشأته وعلى مجونه. وفي شعره إشارات كثيرة إلى فضل التقى والعلم على الأصل والنسب، فمما لا شـــك فيه أنه كان يحس بالضـــعة في أعماق نفســـه. ولقد فطن لهذا كثير ممن ترجموا له، واسـتشـهدوا على ذلك بقوله. أبوان وضـيعان، ونشـأة وضـيعة، ونفس تحس بالضـعة وتتألم لهذا. واسـتمع إلى رأي أحد معاصـريه في هذه النشـأة الخاملة: " أُخبِرَ يحيى بن خالد أن أبا العتاهية قد نسـك، وأنه جلس يحجم الناس للأجر تواضـعاً بذلك. فقال: ألم يكن يبيع الجرار قبل ذلك؟ فقيل له: بلى، فقال: أما في بيع الجرار من الذل ما يكفيه ويســـتغني به عن الحجامة؟" أما تاريخ مولده فالمجمع عليه أنه سـنة مائة وثلاثين للهجرة.[2] ولسـنا نعلم عن حياته الخاصـة سـوى أنباء قليلة عن أولاده؛ فالأصـــفهاني يروي أنه: "كانت لأبي العتاهية بنتان، اســـم إحداهما (لله) والأخرى (بالله)، فخطب منصور بن المهدي (لله) فلم يزوجه، وقال: إنما طلبها لأنها بنت أبي العتاهية، وكأني به قد ملّها فلم يكن لي إلى الانتصـــاف منه ســـبيل، وما كنت لأزوجها إلا بائع خزف وجرّار، ولكني أختاره لها موســراً". وكان لأبي العتاهية ابن يقال له محمد وكان شـاعراً. فهو يريد صـــهره بائع

[1] . أسامة عانوتي، أبو العتاهية: رائد الزهد في الشعر العربي، (رسالة ماجستير غير منشورة)، الدائرة العربية، الجامعة الأميركية في بيروت، لبنان، حزيران 1957، ص 44.
[2] . المصدر نفسه ص 45-46

خزف أو جراراً كما كان هو في نشأته، ويريده موسراً لأنه ذاق مرارة الفقر. ولا ندري إذا كان له ابنة ثالثة ــ تلك التي يتحدث عنها صاحب "معاهد التنصيص" أم أنها إحدى ابنتيه المذكورتين؛ فقد زعم أن أبا العتاهية قال لابنته "رقية" وهو في علته التي مات فيها أن تندبه بأبيات من الشـــعر، وليس هذا من الخطورة في حياته بحيث نتقصـــاه، ولم نعثر في غير هذا الكتاب على ذكر لهذه الابنة المســـماة "رقية". أما ابن المعتز فيوافق أبا الفرج في ما قال عن ابن أبي العتاهية، ولكنه يضـــيف أنه كان زاهداً ناســـكاً وقال: "وكان مع ذلك شـــاعراً إلا أنه تخلى من الدنيا". ويقول في موضـــع آخر إنه كان "صـــحيح الدين ورعاً، وولي القضـــاء برهة". وتجمع الروايات على أن ابنه كان شاعراً، وتذكر لنا من شعره شيئاً، وأنه كان "ناسكاً زاهداً".

ولم يرد ذكر لامرأته إلا في "تاريخ بغداد" في معرض الحديث عن ابنه عتاهية: "محمد بن أبي العتاهية لقبه عتاهية، ويكنى أبا عبد الله، وأمه هاشـــمية بنت عمرو اليمامي مولى لمعن بن زائدة، وكان محمد ناسكاً زاهداً شـاعراً". وإذا كان لنا أن نستنتج من ذلك شيئاً نربطه بنشأته ثم بنزعته إلى الزهد فهو أن ما فاته من شرف النسب في أمه وأبيه لم يواته في زوجته؛ فقد رأينا أنه مولى، وأن أباه مولى، وأمه مولاة، وهذه زوجته ابنة أبٍ مولى. ومهما يكن من أمر الروايات عن بخله ومبلغها من الصحة أو المبالغة فإنها تعكس جانباً من نفسيته التي اكتوت بنار الفقر والحرمان في مبدأ عمرها، فهي تعوض بهذا الحرص والكنز ما فاتها من إقبال الدنيا ويســـرها، أو تجد في هذا الحرص أمناً بعد خوفها وقلقها الطويلين. وهذا يدخل في حســـاب زهده حين نمحص دوافعه التي عزاها نفر من الباحثين إلى كل شيء خلا الإحساس الصادق بالزهد. تباينت الآراء في عقيدة أبي العتاهية، وفي "الأغاني" طعن صـــريح بها: "كان أبو العتاهية مذبذباً في مذهبه، يعتقد شـــيئاً، فإذا سمع طاعناً عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره". ويبسط الأصفهاني مذهبه فيقول: "كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد، وأن الله خلق جوهرين متضـــادين، ثم إنه بنى العالم هذه البنية منهما، وأن العالم حديث العين والصـــنعة لا محدث له إلا الله، وكان يزعم أن الله ســـيرد كل شـــيء إلى الجوهرين المتضادين

ومنهم من احتج بأنه لا يذكر في شـعره الجنة والنار، وإنما يذكر الموت فقط. ولعل ابن المعتز كان من أشـــدهم اعتدالاً وتوخياً في الحكم عليه، فقد قال: "وُيرمى بالزندقة مع كثرة أشـــعاره في الزهد والمواعظ، وذكر الموت والحشـــر والنار والجنة. والذي يصـــح لي أنه كان ثنوياً". ولكنه يُروى عن علي بن إسحاق عن الفضل المبارك في موضـع آخر أن أبا العتاهية كان "خبيث الدين يذهب مذهب الثنوية".

ولم يعدم أبو العتاهية المدافعين؛ فقد حدَّث رجاء بن سـلمة فقال: "سـمعت أبا العتاهية يقول: قرأت البارحة (عم يتساءلون) ثم قلت قصيدة أحسن منها. قال: وقد قيل إن منصور بن عمار شنّع عليه بهذا". ويروى النسـائي عن ابن أبي العتاهية أن جارة لأبي العتاهية وشـت به إلى حمدويه صـاحب الزنادقة، فقد رأته يقنت ذات ليلة فزعمت أنه يكلم القمر، فجاء حمدويه في منزلها يرقبه فرآه يصـلي ولم يجد عليه مأخذاً، ويعقب الراوي على القصـة بحماسـة المنتصـر للحق يعترض بحمدويه العتي الشديد بقوله: "وانصرف حمدويه خاسئاً".

ومن الطبيعي أن يرد أبو العتاهية على هذه التهمة، ففي "الأغاني": "أنه قال: زعم الناس أني زنديق، والله ما ديني إلا التوحيد. فقلنا له، نقل شيئاً نتحدث به عنك. [1]

ب- شعره

في بغداد انتهج شـاعرنا نهجاً جديداً : اطرح رداء الخمول واقبل على الشـعر يتوسـل به الى قصـور الخلفاء والوجهاء . ولقد كان له من هذا الشـعر ـــ الذى سـنرى بعد قليل انه حاز اعجاب الكثيرين من معاصريه وغير معاصريه ـــ خير عون على الوصول الى البلاط العباسي حيث نال الحظوة والرعاية اللتين اسبغهما عليه ذلك المديح الذى كان ينشره على الخلفاء والوجهاء ، فاثارت حفيظة كثيرين عليه وحسدهم .[2]

فذاق مع طعم المال والجاه طعم الحسـد والوشـايات . ويبدو انه بالرغم من ثقافته المحدودة ، استطاع بشعره ان يشق طريقه في زحمة الحاسدين والواشين ، وان يجعل لنفسه مكانة مرهوبة الجانب . ولم يكن سلاحه في هذا الا شعره الذى فتح له ابواب القصور والقلوب . وشهادات كبار الادباء في هذا الشـعر لا تخرج في فحواها عن الاعجاب والتقدير . فالواقع ان الرجل كان شـاعراً بطبعه . قال الجاحظ : " وسـمعت ابا العتاهية يقول : لو شـئت ان يكون حديثي كله شـعراً موزوناً لكان وكانت له اوزان ابتكرها ـــ على ما يروون ـــ لا تدخل في العروض . ولما سئل ذات مرة " هل تعرف العروض ؟ " اجاب اجابة الحانق على ماضـيه الثائر على نقصـه القديم ، المدل بالقوة الجديدة التي اوتيها " انا اكبر من العروض ". وقال ذات مرة : "لو شـئت ان اجعل كلامي كله شـعراً لفعلت " . ولقد وصـف قدرته على النظم وصـفاً جميلاً بليغاً ، فيه ذلك الادلال بهذه القوة السحرية المحدثة فيه : " ما اردته قط الاّ مثل لي فاقول ما اريد واترك ما لا اريد ".

[1] . المصدر نفسه ص 46-50
[2] . المصدر نفسه ص 54

وواضـــح انــه كــان قــادراً على النظم ، حــاضـــر البــديهــة والحواس، اطبع النــاس بشـار والسيد (المقصـود هنا السيد الحميرى) وابوالعتاهية . وما قدر احد على جمع شـعر هؤلاء الثلاثة لكثرته . وكان غزير البحر ، لطيف المعاني ، سهل الالفاظ ، كثير الافتنان ، قليل التكلف ، الا انه كثير الساقط المرذول مع ذلك . واكثر شعره في الزهد والامثال. [1]

ج- زهده

نأتي الآن الى تزهده الذي تباينت فيه الآراء . ولن نفيض في الكلام عنه هنا ، لان موضـــع ذلك فصــل خاص تال . وحسـبنا حتى تسـتقيم صـورته في اذهاننا ، ان نشـير الى انه ختم حياته بالنسك . وليس هذا محل خلاف . فهو امر مفروغ منه . ولكن الخلاف في صـدق هذا النسك وفي دوافعه . فمن الناس من رده الى فشــله في حبه عتبة . وسـنرى في بحثنا عن زهده ان هذا تأويل خاطيء ما دام هذا الحب مشــكوكاً في صــدقه . ومنهم من زعم انه رأى في منامه آتياً اتاه فلامه على قوله في عتبة: الله بيني وبين مولاتي ابد ت لي الصــد والملامــات وقال : " ما اصبت احداً تدخله بينك وبين عتبة يحكم لك عليها بالمعصـــية الا الله تعالى ؟ فانتبهت مذعوراً وتبت الى الله تعالى من سـاعتي من قول الغزل ". ولكنه لم يتب عن قول الغزل . فقد قاله بعد ان حبسـه الرشـيد وضـربه عقاباً له على تركه اياه. ثم ان هذه الرواية واهنة ، واضـحة الصـنعة. وليس في الاصـول اشـارة معقولة تعلل زهده ، تخرج في فحواها عن مثل هذه الاشـارات . ولكن الشـك في هذا الزهد قديم . فسلم الخاسر يعده رياءً ويقول فيه: ما اقبح التزهيد من واعظ يزهّـد الناس ولا يزهـــــد لو كان في تزهيده صادقــاً اضحى وامسى بيته المسجد ورفض الدنيا ولم يلقهـــا ولم يكن يسعى

ويسترفـــــد اذن فابي العتاهية لم يرفض الدنيا شأن الزاهدين . ولكنه ظل متمسكاً بها ، مقبلاً عليها . وقد قال المعري متهكماً: الله ينقـل مـــن شـــاء رتبة بعـد رتبـــــــــة ابدى العتاهـي نسكـــاً وتـابع حـــب عتبـــــــه فنشأته الماجنة وتمسكه بالدنيا لم يتمثل هذا في حرصه وبخله وتكسبه بشعره جميع هذا حمل نفراً من الباحثين على الشك في زهده[2].

د- آراؤه الدينية

حدثني الصــولي قال حدثنا محمد بن موســى عن أحمد بن حرب قال: كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد، وأن الله خلق جوهرين متضــادين لامن شــيء، ثم إنه بني العالم هذه البنية منهما، وأن العالم حديث العين والصــنع لا محدث له إلا الله. وكان يزعم أن الله ســيرد كل شــيء إلى

[1] . المصدر نفسه ص 55
[2] . المصدر نفسه ص 66-67

الجوهرين المتضادين قبل أن تفنى الأعيان جميعا". وكان يذهب إلى أن المعارف واقعة بقدر الفكر والاستدلال والبحث طباعا". وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب، ويتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة، لا ينتقص أحدا "ولا يرى مع ذلك الخروج على السلطان. وكان مجبرا" مناظرته لثمامة بن أشـــرس في العقائد بين يدي المأمون: قال الصـــولي: فحدثني يموت بن المزرع قال حدثني الجاحظ قال قال أبو العتاهية لثمامة بين يدي المأمون وكان كثيرا" ما يعارضـه بقوله في الإجبار-: أسـألك عن مسـألة. فقال له المأمون: عليك بشـعرك. فقال: إن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في مسألته ويأمره بإجابتي !فقال له: أجبه إذا سألك. فقال: أنا أقول: إن كل ما فعله العباد من خير وشر فهو من الله، وأنت تأبى ذلك، فمن حرك يدي هذه؟ وجعل أبو العتاهية يحركها. فقال له ثمامة: حركها من أمه زانية. فقال: شـــتمني والله يا أمير المؤمنين. فقال ثمامة: ناقض الماص بظر أمه والله يا أمير المؤمنين !فضـحك المأمون وقال له: ألم أقل لك أن تشـتغل بشـعرك وتدع ما ليس من عملك! قال ثمامة: فلقيني بعد ذلك فقال لي: يا أبا معن، أما أغناك الجواب عن الســـفه؟! فقلت: إن من أتم الكلام ما قطع الحجة، وعاقب على الإساءة وشفى من الغيظ وانتصر من الجاهل .

قال محمد بن يحيى وحدثني عون بن محمد الكندي قال: سـمعت العباس بن رسـتم يقول: كان أبو العتاهية مذبذبا" في مذهبه: يعتقد شـيئا"، فإذا سـمع طاعنا" عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره خبره مع المخنثين حدثني أحمد بن عبيد الله بن عمار قال حدثني ابن أبي الدنيا قال حدثني الحسين بن عبد ربه قال حدثني علي بن عبيدة الريحاني قال حدثني أبو الســـمقمق: أنه رأس أبا العتاهية يحمل زاملة المخنثين، فقلت له: أمثلك يضع نفسه هذا الموضع مع سنك وشعرك وقدرك؟ فقال له: أريد أن أتعلم كيادهم، وأتحفظ كلامهم . محاورته بشـــر بن المعتمر أخبرني عيســـى بن الحســـين الوراق قال حدثنا عبد الله بن أبي سعد قال: ذكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل أن بشر بن المعتمر

قال يوما" لأبي العتاهية: بلغني أنك لما نسكت جلست تحجم اليتامى والفقراء للسبيل، أكذلك كان؟ قال نعم. قال له: فما أردت بذلك؟ قال: أردت أن أضع من نفسي حسبما رفعتني الدنيا، وأضع منها ليسقط عنها الكبر، وأكتسب بما فعلته الثواب، وكنت أحجم اليتامى والفقراء خاصـة. فقال له بشر: دعني من تذليلك نفسي بالحجامة؛ فإنه ليس بحجة لك أن تؤديها وتصلحها لما لعلك تفسد به أمر غيرك؛ أحب أن تخبرني هل كنت تعرف الوقت الذي كان يحتاج فيه من تحجمه إلى إخراج الدم؟ قال: لا. قال: هل كنت تعرف مقدار ما يحتاج كل واحد منهم إلى أن يخرجه على قدر طبعه، مما إذا زدت فيه أو نقصت منه ضر المحجوم؟ قال لا. قال: فما أراك إلا أردت أن تتعلم الحجامة على أقفاء اليتامى والمساكين! أراد حمدوية صاحب الزنادقة أخذه فتستر بالحجامة: أخبرني محمد بن يحيى الصـــولي قال حدثنا أبو ذكوان قال حدثنا العباس بن رســـتم قال: كان حمدوية صـــاحب

الزنادقة قد أراد أن يأخذ أبا العتاهية، ففزع من ذلك وقعد حجاما". أخبرني الحســـن بن علي قال حدثنا محمد بن القاســـم بن مهروية قال قال أبو دعامة علي بن يزيد: أخبر يحيى بن خالد أن أبا العتاهية قد نســـك، وأنه جلس يحجم الناس للأجر تواضـــعا" بذلك. فقال: ألم يكن يبيع الجرار قبل ذلك؟ فقيل له بلى. فقال: أما في بيع الجرار من الذل ما يكفيه يســتغني به عن الحجامة! ســئل عن خلق القرآن فأجاب أخبرني محمد بن يحيى قال حدثني شــيخ من مشــايخنا قال حدثني أبو شــعيب صاحب ابن أبي دواد قال: قلت لأبي العتاهية: القرآن عندك مخلوق أم غير مخلوق؟ فقال: أسألتني عن الله أم عن غير الله؟ قلت: عن غير الله، فأمســك. وأعدت عليه فأجابني هذا الجواب، حتى فعل ذلك مرارا". فقلت له: مالك لا تجيبني؟ قال: قد أجبتك ولكنك حمار. [1]

الحكمة

إن العقل والعاطفة من مركبات شـخصـية الإنسـان التي لا يمكن تصـورها بدونهما، و إذا كان العقل قوة طبيعية للنفس متهيئة للإصــابة في الحكم، فالعاطفة اســتعداد نفســي ينزع بصــاحبه إلى الشعور بانفعالات وجدانية خاصة، و القيام بسلوك معين إزاء شيء أو شخص أو جماعة أو فكرة معينة. و الإنســـان ليس عقلا فقط و ليس عاطفة فقط، و إنما هو عاطفة و عقل. و العاطفة بحاجة إلى عقل يرشــدها و كذلك العقل فهو بحاجة إلى عاطفة لكي يجعل من الأفعال التي يأمر بها أفعالا مرغوبة و محبوبة. و على العموم، فإن العقل و العاطفة توأمان لا يمكن الفصل بينهما في تصرف الإنسـان و سـلوكه و في تفكيره و تقديره للأمور، غير أنه يجب الإقرار باختلاف ميزان كل منهما قوة و ضعفا حسب الموقف الذي يكون فيه الإنسان. و بقراءتي لديوان أبي الطيب أحمد بن الحسين بن الصمد الجعفي المعروف بالمتنبي، أدركت دون كبير عناء أن الشاعر يتوافر على رؤية خاصة و نظرات في الحياة جسدها في شعر الحكمة بصورة خاصة. علما بأن هذه الحكم لم ترد مستقلة بقصــائد و إنما جاءت في ثنايا نصــوصــه الشــعرية. و لما كانت الحكمة في جوهرها وليدة العقل، فهل معنى ذلك أن المتنبي جرد صـوغ حكمه من كل وازع عاطفي؟ أم أنه استطاع أن يجانس بين الفكرة العميقة و العبارة البليغة، فجاءت حكمه ترضــي العقل و الشــعور معا؟ و اللافت للنظر، أن شـــعر الحكمة عند المتنبي ليس مجرد خطرات فكر اهتدى إليها الشـــاعر بتأملاته و تجاربه، بل وعاء انصهرت فيه الثقافة الواسعة التي سادت عصره و التي شملت الدين و الفلسفة والمنطق، و حقائق العلوم الأخرى. هذه الثقافة التي اســتوعبها الشــاعر، فكانت خير رصــيد انتهل منه إنتاجه

[1] . أبو العتاهية (أبو إسحاق إسماعيل بن القاسم)، ديوان أبي العتاهية، ص 3-4.

الشعري. و إجمالا، فإن شعر الحكمة عند المتنبي فيض من نفس حساسة، اعتملت فيها الأحداث و أثرت فيها التجارب، فعبرت عن وقع التجربة عليها تعبيرا إنسانيا يعكس للناس مدى تأثرها.

1- المتنبي

أ- حياته

ولد أبو الطيب أحمد بن الحسين بن عبد الصمد الجعفي سنة 303 هـ بالكوفة في حي كِندة، و لذلك نسب إلى هذا الحي أو إلى الكوفة، فقيل له الكوفي الكِندي، ليست نسبته الأخيرة إلى قبيلة كِندة كما قد يتبادر إلى الذهن و لكنها إلى ذلك الحي الذي وُلد فيه. و هو حي نزله المهاجرون العرب الذين نزحوا أيام الفتوح إلى هذه البقاع، و هم من أصل يمني من كِندة فسموا منازلهم الجديدة بأسماء منازلهم الأولى للذكرى و الحنين ، و في شعر أبي الطيب ذكريات في هذا الحي من الكوفة و كان مفارقاً له فقال فيه يحن إليه.

أمنسيَّ السكونِ و حضرَ موتا و والدتي و كِندةَ و السبيعا

و كل هذه أماكن بالكوفة ذاتها عرفها المتنبي في نشأته و صباه. و المتنبي صحيح النسب في عروبته من جهة أبيه و أمه، و بطونهما كانت معروفة بالكرم و الفروسية، و لها أيام مقرونة بالحمد و الذكر و قد ورث الإباء و العنجهية عن قومه الذين قال فيهم:

و إني لمن قوم كأن نفوسهم بها أنَفٌ أن تسكن اللحم و العظما

و قد نشأ المتنبي نشأته الأولى بالكوفة و كان يتردد بين البادية و الحضر فاكتسب من الأولى صلابتها و نزعتها البدوية و من الثانية علومها و ثقافتها. و قد ذكر الثعالبي (الذي ولد قبل المتنبي بأربع سنوات): أن أباه سلّمه إلى المكاتب و ردّده في القبائل، فنشأ المتنبي في خير حاضرة. و الكوفة أرض ذات طبيعة جميلة حببت إلى كثير من المسلمين البقاء بها فآثروها على غيرها، و قد اتخذها أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه قاعدة أمره. تلقى الشاعر تعليمه الأول بالكوفة في كتاب الشيعة العلويين حيث درس مبادئ الدين على نحو ما يفرضها وضع هذه الكتاب. و قد كان القرآن الكريم المادة الأساسية في ثقافته و قد تظاهرت عوامل عديدة وجهته إلى دراسة القرآن الكريم؛ فنشأة الشاعر المبكرة في الكوفة هيأت له هذه العلاقة المبكرة بكتاب الله العظيم، و طبيعة تكوينه الفكري بوصفه شاعراً وهب نفسه لفن النظم. كما كان اهتمامه بالنحو و اللغة العربية دافعاً لحفظ أجزاء كبيرة من القرآن الكريم، و قد كان يعتمدها في المناقشات

التي كانت تدور بينه و بين من أملى عليهم ديوانه. و قد انعكس حفظه للقرآن الكريم في بعض أشعاره على نحو ما جاء[1]

وقد أخذ المتنبي أكثر علمه من ملازمة الوراقين، فكان علمه من دفاترهم و كان المتنبي طُلَعةً، يكثر من الإطلاع على غريب اللغة و حوشيها، و لا يسأل عن شيء إلا و استشهد فيه بكلام العرب من النظم و النثر حتى قيل: "إن الشيخ أبا علي الفارسي صاحب "الإيضاح و التكملة" قال له يوماً: كم لنا من الجموع على وزن فِعْلَى؟ فقال المتنبي: حِجْلَى و ظِرْبَى قال الشيخ أبو علي: طالعت كتب اللغة ثلاث ليالٍ عليَّ أن أجد لهذين الجمعين ثالثاً فلم أجد. و لا عجب في هذا الموقف، فقد كان شاعرنا محباً للعلم، فلم يترك باباً من أبواب الكتب إلا قرأه كالأدب و اللغة و الفلسفة و المنطق و لقي الكثير من أكابر العلماء كالزَّجَّاج، و ابن السَّرَّاج و الأخفش، و ابن دريد، و أبي علي الفارسي و ابن جني و غيرهم. و جدير بالذكر القول بأن أبا الطيب كان متورعاً في

خلقه لا يخرج عن حدود الوقار، متزمتاً لا يلين للشهوات و لا يلقي لها بالاً، مترفعاً عن سفاسف الأخلاق، متمسكاً بمعاليها، أخذ نفسه بالجد الذي لا يضعف، و كان لا يقرب التهم و لا يدانيها. [2]

ب - شعره

الشاعر لا يمكنه التخلص من ذاتيته مهما كان الموضوع الذي يتحدث عنه، و حيث ما تكون الذاتية تضعف الموضوعية لكنها لا تنعدم طالما أنها مقرونة بالعقل؛ إذ لولا العقل لعرّض الشعور والمُخيلة الشاعر إلى الانحراف عن جادة الصواب فقاده إلى الهذيان . و في تبيان حقيقة الشاعر و مكانة الشعور والعقل في الإنتاج الشعري نسوق المقولة الشهيرة التي رددها قدماء اليونان لأن فيها نصيب كبير من الصحة: "الشاعر جالس في مركبة فخمة يجرها جوادان قويان هما الشعور و المخيلة، يسيرهما حوذي حكيم هو العقل . و هذا التعريف اليوناني يحدد وضع الشاعر في علاقته مع عناصر الشعر، و الوظيفة التي يختص بها كل عنصر. فالشعر يعتمد على قوة الشعور و الخيال و العقل و لا يتدخل إلا بقدر التنسيق و التنظيم و التوجيه إلى ما هو أصلح و أكثر ملاءمة للتعبير الشعري .

[1] . شلوف حسين، شعر الحكمة عند المتنبي بين النزعة العقلية و المتطلبات الفنية، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في الأدب القديم، إشراف: أ.د. الربعي بن سلامة، جامعة الإخوة منتوري - قسنطينة، كلية الآداب واللغات، العام الجامعي: 2006/2005م، ص 55

[2] . المصدر نفسه ص 58

و قد يتساءل سائل - عندما يتعلق الأمر بشعر الحكمة - و هو الشعر الذي يعبر عن استخلاص النظر للتجارب العملية الحية أو عن تفاعل الفكر بالفكر مع الزمن عند الإنسان؛ أيتوفر هذا النوع من الشعر على نصيب من العاطفة؟ و الحقيقة أننا إذا قرأنا شعر الحكمة عند المتنبي - مثلاً - وجدنا العاطفة تتخلل المعنى، و ذلك باعتبار أن الحكمة المعبر عنها من ناحية الشاعر ثمرة تجارب كثيرة و شعور صادق بآثار الحياة و حقائقها و أسرارها ناهيك عن كونها مصوغة صوغاً فنياً يبعث في نفس القارئ هذا الشعور الصادق الذي يدفعه إلى التفكير العميق و التأمل في شؤون الدنيا مثل قوله:

شر البلاد مكان لا صديق به * و شر ما يكسب الإنسان ما يصمُ[1]

2- أبو العلاء المعري

أ- اسمه

اسمه فهو : (أحمد) ، وقد كرهه لأنه رأى أنه من النفاق والكذب اشتقاق اسمه من الحمد ، إذ ينبغي أن يشتق من الذم ، فقال:

وَأَحْمَدُ سَمَّانِي كَبِيري وَقَلَّمَا * فَعَلْتُ سِوَى مَا أَسْتَحِقُّ بِهِ الذَّمَّا

وأما كنيته : فقد كُنِّي بـ (أبي العلاء) منذ ولادته جرياً على عادة أهل بلده ، إذ قلّما وُجد نابه في ذلك العهد إلا وله كنية ، والظاهر أنهم كانوا يُكنّون أولادهم منذ الحداثة ، وقد صرّح في الفصول والغايات أنه دُعي بهذه الكنية مذ كان وليداً :

« كُنِّيتُ وَأَنَا وَلِيدٌ بِالعَلَاءِ ، فَكَأَنَّ عَلَاءً مَاتَ ، وَبَقِيَتِ العَلَامَاتُ ، لَا أَخْتَارُ لِرَجُلٍ صِدْقٍ مَا وُلِدَ لَهُ أن يُدْعَى أَبَا فُلَانٍ ، وَرُبَّ شَجَرَةٍ سَاكِيَةٍ تَمْرُهَا غَيْرُ عَذْبٍ ، وَلَيْسَ ظِلُّهَا بِرَحْبٍ ، اسْمُهَا السَّمُرَةُ وَكُنْيَتُهَا أُمُّ غَيْلَانَ » ، وقال في اللزوميات

مِنْ عُثْرَةِ القَوْمِ أَنْ كَنَّوُا وَلِيدَهُمُ * أَبَا فُلَانٍ ، وَلَمْ يَنْسِلْ وَلَا بَلَغَا

ولم يكن المعري راضياً عن كنيته ، ورأى أن من الظلم أن يضاف إلى العلوّ ، وإنما العدل أن يضاف إلى النزول والسقوط ، فقال:

[1] . المصدر نفسه ص 118-119

دُعِيتُ أَبَا العَلَاءِ وَذَاكَ مَيْنٌ * وَلَكِــنَّ الصَّحِيــحَ أَبُــو النُّــزُولِ

وأما لقبه (المعري) فقد نسبه معظم مؤرخيه إلى مدينة (معرة النعمان) مسقط رأسه ، والتصاق اسـمه بها هو الذي جعل لها شـهرة المدن الكبيرة ، سـيما عند الأدباء والشـعراء ، وتنسـب إلى النعمان بن بشـير الأنصـاري ، وكان واليًا على حلب وقنّسـرين في ولاية معاوية ، كما ذكر ابن العديم ، أو اجتاز بها كما ذكر الفيروزآبادي ، فدفن بها ولدًا فأضيفت إليه ، أو تديرها كما ذكر ابن خلكان ، وكانت تسـمى قديمًا ذات القصـور ، والمعرة الآن كما يقول أحد أبنائها : مدينة بين حلب وحماة ، بينها وبين حلب ثمانون كيلو مترًا ، وبينها وبين حماة ثمانية وخمسـون كيلو مترًا ، وهي مركز قضـاء تابع لحلب ، وفيها مساجد كثيرة ، منها المسـجد القديم الذي فيه ضـريح أبي العلاء ، ويشـتمل على سـاحة صـغيرة ، وغرفة أمام الباب فيها قبره ، وإلى جنوبيها غرفة كانت كتَّابًا يعلَّم فيه الصبيان ، ومن شرقيها ساحة خربة فيها بئر ماء وشجرات من الرمان والتين.

وأما اللقب الذي اختاره لنفسه وأحبه كثيرًا ، فهو (رهين المحبسين) ، وقد لقّب نفسه بهذا اللقب بعد رجوعه من بغداد واعتزاله الناس ، وأراد بالمحبســين منزله الذي احتجب فيه ، وذهاب بصــره الذي منعه من مشـاهدة الأشـياء ، ولكنه في موضـع آخر من لزومياته أضـاف سـجنًا ثالثًا ، وهو سجن نفسه الطاهرة في جسده الخبيث:

أَرَانِي فِي الثَّلَاثَةِ مِـنْ سُـجُونِي * فَـلَا تَـسْأَلْ عَـنِ الْخَبَـرِ النَّبِيـثِ

لِفَقْدِي نَـاظِرِي وَلُـزُومِ بَيْتِـي * وَكَوْنِ النَّـفْسِ فِي الْجَسَـدِ الْخَبِيثِ[1]

ب - شعره

نشــأ أبو العلاء المعري من بيت علم وشــعر وقضــاء ، وكان لهذا الميراث العلمي أثره في تربيته ، إذ أتيح له في كنف هذه السـلالة أن ينهل من ثقافتها ، ما أعانه على نظم الشـعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وجعله يميل للبحث والدرس ، وهو لا يختلف في تحصيله الأولى عن كثير من الناشئين في عصره إلا في أنه كان يتعلم بالحفظ وحده ، فقد حال عماه بينه وبين القراءة والكتابة ، وإذا اسـتقرأنا تاريخ المعري فلا نقف من خبر تحصـيله العلمي إلا على وصـف مجمل لبعض ما حصله من العلوم ، وشيوخه فيها في المعرة ، وفيما رحل إليه من البلاد.

[1] . الجياش، طارق عبد الحميد، شَخْصِيَّة المَعَرّي مِنْ خِلَالِ شِعْرِهِ، ص 45-46

ففي المعرة : ذكروا من تحصـــيله وشـــيوخه حتى مفارقته العشـــرين - وهي نهاية ما ذكروا ونهاية تلمذته - فالمؤرخون يتحدثون عن دور أبيه في تنشـــئته العلمية ، فيذكرون أنه قرأ النحو واللغة على أبيه في المعرة ، وعلى (أبي بكر محمد بن مســـعود بن محمد) النحوي ، وعلى (أبي عمرو عثمان الكرجي الطرسوسي) ، قاضي معرة النعمان سنة ٣٨٥هـــ ، وغيرهم من أصحاب ابن خالويه ، وكان مما قرأه على أبيه كتاب الجمهرة لابن دريد ، كما درس القرآن الكريم وقراءاته بالروايات على جماعة من الشـــيوخ ، ويضـــيف ابن العديم قائلاً : « وقد قرأ القرآن بكثير من الروايات على شـيوخ يشـار إليهم في القراءات » ، أما أخذه للحديث الشـريف فقد ذكروا أنه أخذه عن أبيه وجده سـليمان بن محمد ، وأخيه أبي المجد ، وجدته أم سـلمة بنت الحسـن ، فضـلاً عن تلمذه لقاضـــي المعرة ، وثلة من علمائها ، ويبدو أنه قطع شـــوطاً لا بأس به في دراســـة الحديث الشـريف ، فيذكر لنا ابن العديم أنه « خُرِّجَ من حديثه سـبعة أجزاء رويت عنه ، وهي عندي بخط أبي الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة رواها عن أحمد بن على بن عبد اللطيف بن

زريق المعري عنه » ، هذا ما كســبه المعري الناشـــئ : القرآن والحديث واللغة ، وما رافق ذلك من رواية الأشعار ، وحفظ السير[1].

وفي غير المعرة : ذكروا أنه رحل - من أجل العلم - خمس رحلات : إلى حلب ، وأنطاكية ، واللاذقية ، وطرابلس في الشـام ، وبغداد في العراق ، لكن الصـحيح منها - على التحقيق - اثنان : رحلته إلى حلب في صـــباه ، وإلى بغداد في كهولته ، وكلتاهما وقعت من أجل العلم وتحصـــيله ، تلمذة في الأولى ، وقراءة ومذاكرة في الثانية ، خلافاً لما ذهب إليه بعض المعاصـــرين من أنه لم يطلب العلم في غير المعرة ، ولعل حصر طلبه للعلم في حلب وبغداد ، أقرب إلى الصواب لثبوت هاتين الرحلتين عند أكثر المؤرخين القدماء والمعاصرين.

وذكر ابن العديم منفرداً في الإنصاف والتحري ، « أن ابن سعد النحوي كان يروي في قصيدة المتنبي التي مطلعها : (أَزَائِرٌ يَا خَيَالَ أُمِّ عَائِدْ) ، ولم تكن مما قرأه عليه:

أَوْ مُوْضِعًا فِي فِنَاءِ نَاجِيَـةٍ * تَحْمِلُ فِي التَّاجِ هَامَةَ الْعَاقِدْ

فردَّ عليه أبو العلاء : (أَوْ مُوْضِعًا فِي فِنَانِ نَاجِيَةٍ ...) ، فلم يقبل ذلك ابن سعد ، ومضـى إلى نسـخة عراقية فوجد القول ما قاله أبو العلاء » ، وكان دخول أبي العلاء إلى حلب وهو صـبي كما قالوا ، لكنهم لم يحددوا المدة التي أقامها هناك ، والظاهر أنها طالت شـــيئاً ما حيث كانت إبان

[1] . المصدر نفسه ص 50

تلمذته ، وفي حلب موطن أخواله الذين تبت برَّهم به ، بل موطن تلك الحركة العلمية والأدبية والفلسفية التي أحياها سيف الدولة ولم تمت بموته ، وربما كان حديث أحمد أمين عن البيئة العلمية التي كانت عليها حلب ، والدور الذي لعبته في تكوين أبي العلاء أشـمل إذ يقول : ولئن كان سـيف الدولة قد مات قبل ولادة أبي العلاء بثمان سـنين ، فإن الحركة العلمية والأدبية بها لم تكن ماتت ، فشـعر الشـعراء يُروى ، وتلاميذ ابن خالويه وابن جني يروون علمهما باللغة ، والأدب ، والنحو ، والصـرف ، وتلاميذ الفارابي يروون فلسـفته ، فلما انتقل أبو العلاء من المعرة إلى حلب للدرس وجد كل ذلك مهيأً ، فاستفاد منه[1].

[1] . المصدر نفسه ص 51

المبحث الثاني

الحكمة والزهد في شعر ابن شبل

البغدادي

يعد الزهد قرين الحكمة، فمن كان زاهدًا نال شيئا من الحكمة، ومن كان حكيمًا مهد الطريق نحو الزهد، والحكمة موجودة منذ الأزل، فمن يتتبع الشعر العربي يجد جذورها تعود للشعر الجاهلي وصولنا ليومنا، بينما نشط الزهد في العصر الإسلامي ثم العصور الذي تلته، ومنها العصر العباسي.

وقبل أن ندخل إلى غرضي الحكمة والزهد، لابد من التعريف بهما، قبل أن نراهما في شعر.

1: الحكمة

والحكمة في اللغة تعني: ((معرفة أفضل الاشياء بأفضل العلوم، وهي الكلام الذي يقل لفظه ويجل معناه، والحكيم: العالم، والمتقن للأمور)) [1]

وفي الاصطلاح هي: ((لون بليغ موجز صائب يصدر عن عقل، وتجربة، وخبرة بالحياة، ويتضمن حكما في أمر بخير، أو نهي عن شر، وقد كثرت الحكم والحكماء في الجاهلية، فكل قبيلة لها حكيم تفزع إليه عند الشدائد والملمات، وتستنير برأيه، وتسترشد به عند الخصومات، والمنافرات)). [2]

وإن لم يتجاوز شعر الحكمة في العصر الجاهلي الأبيات السريعة التي تلمح في ثنايا قصائد الأغراض كالمدح والهجاء والفخر الورثاء غيرها، فلم تكن الحكمة غرضًا شعريًا مستقلًا، وإنَّما هي أبيات مبثوثة ومن ذلك قول زهير في معلقته التي خصصها لمدح هرم بن سنان، والحارث بن عوف المريان، تلك القصيدة التي وصفها الثعالبي: بأنَّها تشبه كلام الأنبياء، وهي غرة حكم العرب، ونهاية في الحسن، والجودة تجري مجرى الأمثال الرائعة الرائقة[3]، ومن أبيات الحكمة في الجاهلية قول لبيد في زوال الأشياء، والذي قال فيها النبي الأكرم (ص): اشعر كلمة قالتها العرب

ألا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ وَكُلُّ نَعيمٍ لا مَحالَةَ زائِلُ[4]

([1]) . لسان العرب، للإمام العلامة ابن منظور، طبعة جديدة اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصادق العبيدي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي– بيروت– لبنان، الطبعة الثالثة 1999م، مادة : حكم

([2]) . دراسات في الأدب الجاهلي والإسلامي، تأليف: د. محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل– بيروت، الطبعة الأولى 1992م: 55.

([3]) . ينظر: خاص الخاص، تأليف الثعالبي، شرحه وعلق عليه: مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى 1994م : 142.

([4]) . ينظر: جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب، لأبي بكر محمد بن عبد الملك الشنتريني الأندلسي (ابن السراج) تحقيق وشرح ودراسة وتقديم: الدكتور محمد حسين قزقزان، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة – دمشق 2008م: 684.

ومن سمات الحكمة الجيدة أن تكون موجزة سهلة الألفاظ، بعيدة عن التكلف، صادقة مؤثرة، صادرة عن اقتناع لصاحبها بها، وإلا كانت حكما فاترة غير قادرة على التأثير والإقناع، وبالتالي غير قابلة للتداول والأنتشار. [1]

ـ الحكمة في شعر ابن شبل البغدادي

إن الحكة عند الشاعر ابن شبل البغدادي وردت كثيرًا فهو لم يترك قصيدة من قصائده ألا وحشاها بالحكمة والأمثال، وهذا بسبب وفرة الرثاء عنده، فأغلب قصائده الرثائية كانت تزخر بالحكمة والموعظة، والسبب الثاني هو كثرة وصفه للزمن القديم، الدهر، والأيام، وغيرها من الاوصاف كاباحة السر المكنون، وغيرها من الحكم، ومنها قوله يصف الشدائد، بأنها شدة تنسيك شدة بعد مضي الدهر، وكلما كنت أشدة من أختها أنستك الأولى:

فأنسيتموني ظلم دهري ومن يطأ نيوب الأفاعي ينس شوك العقارب [2]

وقال في حكمة أخرى يصف فيها الشر، بأن الأوباش، تفتح باب الشر فيفتك بالصحب والأصحاب:

الشر يفتح بابه أوباشه فيتم للمصحوب بالأصحاب[3]

وكذلك نرى له قصيدة كاملة طويلة تموج أبياتها بالحكمة، فهو بين بيت وآخر نراه يرصد مواطن الحكمة، وهذه القصيدة كانت في غرض الرثاء، منها قول، يصف الإنسان إذا مات وصار تحت التراب لم يعد لذلك الحسن والجمال أي دور، وليس لهذا الحال من الحزن غير البكاء وذرف الدموع:

أين ذاك الرواء والمنطق الجز ل وأين الحياء أين الإباء

([1]) . ينظر: موازنة بين الحكمة في شعر المتنبي والحكمة في شعر أبي العلاء المعري، د. وهدي الخواخا، منشورات دار صبري، الطبعة الثانية، الرياض 1994م: 19، 20.

([2]) . ديون ابن شبل البغدادي: 54.

([3]) . ديون ابن شبل البغدادي: 53.

إن محا حسنك التراب فما للد دمع يوما من صحن خدي انمحاء

أو تبن لم يبن قديم ودادي أو تمت لم يمت عليك الثناء[1]

كما نراه يتحدث عن حكمة البقاء والفناء، فذكر ما لحي أن يبقى، كما هو حال السرور والحزن، فهما يتغيران ولا يستمر أحدهما طول حياة الإنسان، فلا يمكن للإنسان أن يكون دائما يعيش بسعادة أو بحزن، وإنما الحياة متقلبة بين هذا وهذا:

غاية الحزن والسرور انقضاء ما لحي من بعد ميت بقاء[2]

ونرى عنده هذه الحمة متجذرة فهو لم يكن في ذهنه فهو يتكلم عن البقاء والفناء كثيرة وهذا الأرتباطه بالحياة والموت وهذا ما نجده في غرض الرثاء، فهو يستغرب من تعجب العيون من بلى جسمه، وهذا امر الله وقضاؤه، وإن العجب هو عدم بلى جسمي وبقاؤه كما هو:

وتعجب من بلى جسمي عيون وأمر الله يعجب من بقائي

وقالوا راحة المحزون يأس ويأسي منك أعظم للبلاء[3]

([1]) . ديون ابن شبل البغدادي: 45.

([2]) . ديون ابن شبل البغدادي:41.

([3]) . ديون ابن شبل البغدادي:38.

2: الزهــد

والزهـد فـي اللغـة مـن ((زهـد: والزهـد والزهـادة فـي الـدنيا ولا يقـال الزهـد فـي الـدين خاصـة والزهـد ضـد الرغبـة والحـرص علـى الـدنيا، وقولـه عـز وجـل: (وكـانوا فيـه مـن الزاهدين)) [1]

وفـي الاصـطلاح: ((هـو الكـف عـن المعصـية وعمـا زاد عـن الحاجـة وتـرك مـا يشـغل عـن الله عـز وجـل، ثـم الكـف عـن أمـور الـدنيا جميعـا بتخليـة القلـب والتقشـف التـام، وتـرك كـل ما هو مخلوق)) [2]

والزهـد ظـاهرة نفسـية كـان لهـا اثـر كبيـر فـي الشـعر العربـي، فقـد شـاعت عنـد العـرب قبـل الإسـلام عـدة عبـادات منهـا الوثنيـة أي عبـادة الأوثـان وعبـادة الكواكـب، وآخـرون عبـدوا الجـن والملائكـة، وهنالـك الـدهريون أي الـذين لا يعترفـون بحيـاة بعـد المـوت، كمـا كانـت الحنفية واليهودية والمسيحية منتشرة في شبه الجزيرة العربية.

ومـرت الروحيـة العربيـة بعـد مراحـل وتعرضـت لعـدة مـؤثرات، وبعـد أن كانـت تـدينا وورعا تطورت إلى زهد، ثم تطور الحياة تحولت إلى تصوف تأثر بالنظريات الفلسفية.

وفـي الإسـلام كانـت التعـاليم الإسـلامية هـي الظـل الـذي يسـتظل بـه مـن اعتنـق هـذا الـدين، ولكنـه لـم يقـض علـى كـل الفـتن والخلافـات السياسـية وغيرهـا، ممـا دفـع الـبعض للتزهـد، فقـد وجـد الزاهـدون خـلال هـذه الاضـطرابات والصـراعات والفسـاد الاخلاقـي أنفسـهم يهربون من زيف الحياة ويلجأون للورع ويقبلون على القرآن والسنة الشريفة. [3]

ـ الزهد في شعر ابن شبل البغدادي:

شـكل الزهـد هـو الآخـر نسـبة كبيـرة فـي شـعره، فكمـا حضـرت الحكمـة حضـر الزهـد، وكأنهمـا مترابطـان فـي شـعره، وهـذا يعـود لـنفس الأسـباب التـي دعـت لوجـود الحكمـة فـي

([1]) . لسان العرب، مادة: زهد.

([2]) . نزعة الزهد في الشعر الأندلسي من الفتح إلى نهاية الدولة دراسة تحليلية، مشاعر عباس أحمد عوض السيد، رسالة ماجستير، جامعة أم درمان الإسلامية، 2010م: 7.

([3]) . ينظر: الزهد في الشعر العربي، سراج الدين محمد، دار الراتب الجامعية، بيروت– لبنان، د:ت، لا:ط: 6، 7.

شعره، وهي ذكر الموت في غرض الرثاء، وكلامه الكثير عن البقاء والفناء، وكذلك الحديث المستمر عن الدهر وماضيه، ونرى له قصيدة كاملة في الزهد، بدأ فيها حديثه الزهدي في هذه القصيدة بالكلام على الدورة اليومية للطبيعة المتمثلة بالابتداء بالصبح والانتهاء بالليل، وقد أكد أن هذا التعاقب إنما يأكل أعمارنا وعلينا الرضوخ والقبول بما يفرضه علينا سواء أكان خيرا أم شرا فهو يشبه حال الناس في الدنيا بالأسرى الذين لا يقدرون على فعل شيء، لانهم مجبرون على سماع الأوامر وقبول الواقع، وكرر الشاعر أسلوب التشبيه مرة أخرى (كما تشظى) فشبه انفاس الأنفس بحال السكين الذي يحد القلم فيتشظى منه الخشب كذلك هي حال الأنفس تتشظى وتتلاشى بحضور الأجل ولكن الذي يعرف الدنيا جيدا هو الذي يعمد إلى الزهد فيها فلا تجره مغرياتها نحو ارتكاب المعاصي والآثام ولا سيما انها زائلة وفانية لا محال[1]:

ليل وصبح إذا ما أعطيا سلَبا كلاهما في قُوى أعمارنا جلَمُ

بالخير والشرّ نرضى من عثارهما رضى المغيض بما تقضي به الزَّلَم

طرفان ما استبقا إلاَّ لكبوتنا وخاطفان بنا والموج يلتطم

ونحن أسرى يلوّينا اختلافهما إلى الأعنَّة أبلى خرزها اللُّجم

تهفو شظايا على الأنفاس أنفسُنا كما تشظَّى بحدِّ المدية القلم

مما يزهد بالدُّنيا الخبيرَ بها أَن اللذاذةَ عنها يحدث الألم

فكيف نُمسِك بالأرماق من أج والآكلان له الأنوار والظُّلم

لا بالشباب ولا بالشيِّب لي فرح هذا غُراب حوى شطري، وذا رخم[2]

وقال في أبيات أخرى يعرض فيها زهده بالحياة وكل ما يسلي، ويرى أن وجود الإنسان في جوهره، فهنا إشارة واضحة إلى ايمان الشاعر بقدرة الله تعالى على ارجاعه الأشياء اذا ما افتقدت، والاشياء مهما فقدت فانها تعوض بصبر الانسان وعمله، ولكنه اذا ما أهلك نفسه فلا يوجد تعويض لتلك النفس[3]:

تسل عن كل شيء بالحياة فقد يهون بعد بقاء الجوهر العرض

([1]) . ينظر: ما وصل الينا من شعر ابن شبل البغدادي: حلمي عبد الفتاح الكيلاني – مجلة مجمع اللغة العربية الأردني – العدد 54- السنة الثانية والعشرون – كانون الثاني- حزيران – 124:1998

([2]) . ديون ابن شبل البغدادي: 86.

([3]) . ينظر: ما وصل الينا من شعر ابن شبل البغدادي: 113-114.

يعوض الله مالاً أنت متلفه وما عن النفس أن أتلفتها عوض

ونـرى الشـاعر يلـف النظـر إلـى مسـألة القضـاء والقـدر ويصـوغ فكرتـه لبنـي البشـر – عنهـا انطلاقـا مـن الحكمـة التـي " تعـزز ايمانـه بالقضـاء والقـدر وتحثـه علـى العلـم والعمـل، وهـي دلالـة علـى مـا فـي نفسـه تجـاه هـذه القضـية؛ فـلا يظـن الانسـان انـه حـر ومـا يفعلـه هـو مـن صـميم ارادتـه واختيـاره بـل ان الحقيقـة الواقعـة هـي عكـس ذلـك، فالقضـاء والقـدر اكبـر مـن ارادتـه فهـو يقـول كلمتـه ويملـي مـا يريـده مـن دون اعتـراض أو تلكـؤ، وهكـذا تـأتي الحظـوظ سـعيا مـن دون عنـاء فـي أوقـات معينـة، ثـم مـا تلبـث ان تختفـي وتـزول نـزولا عنـد مشيئة القدر في أوقات أخرى[1]:

وكأنما الإنسان فيه غيره متكوناً والحسن فيه معار

متصرفاً وله القضاء مصرّف ومكلفاً وكأنه مختار

طور أَتصوبه الحظوظ وتارة خطأ تحيل صوابه الأقدار

تعمى بصيرته ويبصر بعدما لا يسترد الفائت استبصار

فتراه يؤخذ قلبه من صدره ويرد فيه وقد جرى المقدار

فيظل يضرب بالملامة نفسه ندماً إذا لعبت به الأفكار

لا يعرف الإفراط في إيراده حتى يبينه له الإصدار[2]

نكتفـي بهـذا القـدر مـن الشـواهد الشـعرية علـى مسـتوى الحكمـة والزهـد، ولتكـون دليـل علـى تـوافر هـذين الغرضـين فـي شـعره، والحقيقـة مـا فـي ديوانـه الكثيـر مـن الشـواهد الشـعرية التـي جـاءت بغرضـي الزهـد والحكمـة، وذكرنـا أن سـبب هـذا هـو الرثـاء وذكـره البقاء والفناء، وعودته إلى الزمن الماضي وكيف ذهب به الدهر.

(1) . ينظر: ما وصل الينا من شعر ابن شبل البغدادي: 107

(2) . ديون ابن شبل البغدادي: 93.